نفحات القرآن

الجزء الأول

المؤلف

الشيخ مكارم ناصر الشيرازي

الإهداء:
المقدمة:
الاناط المختلفة للتفسير:
ما هو التفسير الموضوعي؟
ما هي المشكلات التي يُمكن حلُّها بالتفسير الموضوعي؟
تاريخ التفسير الموضوعي
التفسير الموضوعي في كلمات العلماء السابقين
الأسلوب الصحيح في التفسير الموضوعي:
يوجد أسلوبان للتفسير الموضوعي:
الأسلوب الأول :
الأسلوب الثاني:
مشكلات التفسير الموضوعي:
لماذا لم ينْمُ هذا الموضوع من التفسير نمواً كافياً؟
كل عمل باسم الله
تمهيد:
شرح المفردات:
الاسم:
جمع الآيات وتفسيرها
لماذا نبدأ فقط باسم الله؟
توضيحات:
١ ـ الاهمية الخاصة لـ «بسم الله»
٢ ـ هل ان بسم الله جزء لكلِّ سورة؟
لماذا لم تُذكر بسم الله في بداية سورة براءة؟
٤ ـ لا تقرنوا اسم الله باسم غيره ؟
نظرية المعرفة
تمهيد:
* هل هناك عالم خارج اذهاننا؟
القرآن
ووجوب المعرفة
القرآن ووجوب المعرفة
تمهيد:
١ ـ وجوب تحصيل العلم:
٢ ـ تكرار اللوم والتوبيخ على ترك التفكر:
٣ ـ التأكيد على لزوم التعليم والتعلم :
٤ ـ العلمُ والمعرفة هما الهدف من خلق العالم:
٥ ـ الهدف من بعثة الانبياء هو التعليم والتربية:
٦ ـ التفكّر والتدبّر هو الهدف من نزول القرآن:
٧ المعرفة هي الهدف من المعراج:
٨ ـ الدعوةُ للإسلام بدأت بالدعوة للعلم:
٩ ـ العلم نور وضياء:
١٠ ـ إدراك أسرار الوجود خاصّ بالعلماء:
١١ ـ الله أول معلِّم:
١٢ ـ بالعلم يتميَّز الإنسان عن الموجودات الأُخرى:
١٣ ـ درجاتُ القرب من الله تتناسبُ مع درجات المعرفة:
١٤ ـ الأنبياء(عليهم السلام) يُطالبون بعلم أكثر:
١٥ ـ المعرفة مفتاح نجاة الإنسان:
١٦ ـ العلم فخر بجميع أشكاله:
١٧ ـ المعرفة شرط أساسي للادارة والقيادة.
١٨ ـ العلم منبع الايمان:
١٩ ـ العلم منشأ تقوى الله وخشيته
٢٠ ـ العلم منشأ الزهد:
٢١ ـ التطور المادي وليد العلم:
٢٢ ـ العلم منبع القدرة أو (العلم قدرة)
٢٣ ـ التزكية تنشأ عن العلم:
٢٤ ـ الصبر والتحمل ينبع عن العلم:
٢٥ ـ العلم والمعرفة خير كثير:
٢٦ ـ اصحاب السعير هم الجاهلون:

٢٧ ـ الجهل مصدر انحطاط البشر:
٢٨ ـ اجهل عمى:
٢٩ ـ الحياة مع الجهل هي أرذل العمر:
٣٠ ـ الكفر ينشأ عن الجهل:
٣١ ـ الجهل السبب الاساسي للخسران:
٣٢ ـ الجهل منبع لاشاعة الفساد:
٣٣ ـ الجهل أساس التعصب والعناد:
٣٤ ـ الجهل منشأ التبرير:
٣٥ ـ الجهل هو سبب التقليد الأعمى:
٣٦ ـ الجهل يُسبّبُ الخلاف والفرقة:
٣٧ ـ الجهل هو سبب إساءة الظن بالآخرين:
٣٨ ـ فقدان الأدب ينشأ عن الجهل:
٣٩ ـ الجهل سبب الندم والمشاكل الإجتماعية:
٤٠ ـ الجهلُ وتبدّل القيم:
استخلاص واستنتاج:
إيضاحات:
١ ـ إمكانية المعرفة من وجهة نظر فلسفية:
ما هي شروط الوصول الى المعرفة؟
الجواب:
إيضاح:
٢ ـ العلم البشري المحدود:
شرح المفردات:
جمع الآيات وتفسيرها:
نتيجة البحث:
٣ ـ الفلاسفة والعلماء يشهدون بقصور العلم البشري:
تذكير:
مصادر وسُبُل المعرفة
(مصادر المعرفة الستة)
٢ ـ مصادر وسُبُل المعرفة(مصادر المعرفة الستة)
تمهيد:
المصدر الأوّل
الحس والتجربة
١ ـ الحس والتجربة
شرح المفردات:
جمع الآيات وتفسيرها:
ايضاحات:
الفلاسفة ومصدر الحس:
المصدر الثاني:
العقل
٢ ـ العقل
تمهيد:
شرح المفردات:
أفعال العقل:
جمع الآيات وتفسيرها:
إيضاحات:
٢ ـ شأن العقل في الروايات الاسلامية:
٣ ـ المخالفون لتحكيم العقل:
المصدر الثالث:
التأريخ
والآثار التأريخية
٣ ـ التاريخ والآثار التاريخية
تمهيد:
شرح المفردات:
جمع الآيات وتفسيرها:
إيضاحات:
٣ ـ شوائب التاريخ:
٤ ـ فلسفة التاريخ:

الإجابة على إشكال:
آخر الحديث حول التاريخ المعلّم:
المصدر الرابع:
الفطرة
والوجدان
والشعور الباطني
٤ ـ الفطرة والوجدان والشعور الباطني
تلميح:
نقرأ أولا الآيات الآتية:
معاني المفردات:
جمع الآيات وتفسيرها:
النتيجة:
إيضاحات:
٢ ـ هل توجد معرفة فطرية؟
سؤال آخر:
الجواب:
٣ ـ «الفطرة» و«الوجدان» في الروايات الاسلامية:
المصدر الخامس:
الوحي السماوي
٥ ـ الوحي السماوي
تمهيد:
شرح المفردات:
شرح الآيات وتفسيرها:
إيضاحات:
المصدر السادس:
الكشف والشهود
٦ ـ الكشف والشهود
تمهيد:
شرح المفردات:
جمع الآيات وتفسيرها:
النتيجة:
إيضاحات:
النتيجة:
سؤال؟
الجواب:
سؤال:
الجواب:
حُجب المعرفة
وآفاتها
حُجُب المعرفة وآفاتها
تمهيد:
حُجب المعرفة:
شرح المفردات:
جمع الآيات وتفسيرها:
النتيجة الأخيرة:
حُجُب المعرفة وآفاتها
«بالتفصيل»
تمهيد:
القسم الاول:
الصفات التي تحول دون المعرفة
الصفات التي تحول دون المعرفة
١ ـ حجاب اتخاذ الهوى إلهاً:
شرح المفردات
جمع الآيات وتفسيرها:
٢ ـ حجاب حب الدنيا
جمع الآيات وتفسيرها:
٣ ـ حجاب الكبر والغرور وسكرة القدرة!

جمع الآيات وتفسيرها:
حجاب الغرور في الأحاديث الاسلامية:
٤ ـ حجاب الجهل والغفلة
جمع الآيات وتفسيرها:
حجاب الجهل في الأحاديث الاسلامية:
٥ ـ حجاب النفاق
جمع الآيات وتفسيرها:
سؤال:
الجواب:
٦ ـ حجاب التعصب والعناد
تجمع الآيات وتفسيرها:
النتيجة:
٧ ـ حجاب التقليد الأعمى
شرح المفردات:
شرح الآيات وتفسيرها:
إيضاحات:
١ ـ تقليد الجاهل للعالم:
٢ ـ تقليد العالم للعالم:
٣ ـ تقليد العالم للجاهل:
٤ ـ تقليد الجاهل للجاهل:
٢ ـ شروط التقليد الممدوح:
٣ ـ عوامل التقليد الأعمى:
٨ ـ حجاب حب الرفاه
جمع الآيات وتفسيرها:
٩ ـ حجاب الأمانيّ
جمع الآيات وتفسيرها:
إيضاحات:
القسم الثاني:
الاعمال التي تحجب
عن المعرفة
الأعمال التي تحجب عن المعرفة
١٠ ـ حجب الذنوب
جمع الآيات وتفسيرها:
إيضاحات:
١١ ـ حجاب الكفر والأعراض
جمع الآيات وتفسيرها:
١٢ ـ حجاب الاعتداء والعدوان
جمع الآيات وتفسيرها:
١٣ ـ حجاب الرؤية السطحية وترك التدبر
جمع الآيات وتفسيرها:
١٤ ـ حجاب الارتداد
جمع الآيات وتفسيرها:
١٥ ـ حجاب الكذب والافتراء
جمع الآيات وتفسيرها:
١٦ ـ حجاب الظن السميك
جمع الآيات وتفسيرها:
القسم الثالث:
الحجب الخارجية:
الحُجُب الخارجية
١٧ ـ حجاب القادة الضالين والفسدة
تمهيد:
جمع الآيات وتفسيرها:
إيضاحات:
١٨ ـ حجاب الأصدقاء الضالين
جمع الآيات وتفسيرها:
إيضاحات:
١٩ ـ حجاب الاعلام والمحيط

جمع الآيات وتفسيرها:
إيضاحات:
حجاب وساوس الشياطين
شرح المفردات:
جمع الآيات وتفسيرها:
إيضاحات:
مؤهلات المعرفة
٥ ـ مؤهلات المعرفة
تمهيد:
١ ـ علاقة التقوى بالمعرفة
شرح المفردات:
جمع الآيات وتفسيرها:
إيضاحات:
٢ ـ الايمان والمعرفة
تمهيد:
جمع الآيات وتفسيرها:
إيضاحات:
٣ ـ علاقة «الصبر والشكر» بـ «المعرفة»
جمع الآيات وتفسيرها:
النتيجة:
٤ ـ المعرفة تهيء الأرضية للمعرفة
تمهيد:
جمع الآيات وتفسيرها:
النتيجة:
٥ ـ علاقة الخوف بالمعرفة
تمهيد:
شرح الآيات وتفسيرها:
النتيجة:

٢ ــ كيف تُرفع الحجب؟

إضافة إلى الاحاديث السابقة، فان هناك تعابيرات في الروايات تدل على ان الانسان كلما ازداد ايمانه ويقينه زالت عنه الحُجُب والنفسيات والصفات الذميمة (التي اصطنعها الانسان نفسه بذنوبه) عن قلبه وتكشفت له حقائق أكثر عن الكون الى درجة تمكنه من النظر الى ملكوت السموات والارض كما نظر ابراهيم الخليل.

إن قلب الانسان وروحه كالمرآة التي قد لا تعكس حقيقة بسبب المعاصي وسوء الأخلاق، لكنها عندما تطهر بماء التوبة، ويزول غبار المعاصي عنها، ويعقل القلب جيداً، فان الحقائق ستسطع فيها ويكون صاحبها أمين اسرار الله، ويسمع نداءاته التي لا يسمعها إلاّ من اؤتمن.

ويمكن عدّ الأحاديث التالية شواهداً على ما قلناه!

١ ــ يقول الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) في ضمن حديث له: «لولا أن الشياطين يحومون الى قلوب بني آم لنظروا الى الملكوت»(٣).

٢ ــ وقد جاء في خبر آخر عن الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً: « ليس العلم بكثرة

---

١ - أمالي الصدوق الصفحة ٩٣ مجلس ٣٠.

٢ - مدينة المعاجز الصفحة ٢٢٤.

٣ - البحار الجزء ٧٠ الصفحة ٥٩، باب القلب وصلاحه الحديث ٣٩.

التعلّم، وانّما العلم نور يقدفه الله في قلب من يحب، فينفتح له، ويشاهد الغَيب، وينشرح صدره فيتحمل البلاء، قيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة؟ قال: التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»(١).

٣ ــ وقد وصف نهج البلاغة حُجَجَ الله على الناس في الارض هكذا:

«هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين، واستدانوا ما استعوره المُترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواها مُعلَّقة بالمحلِّ الأعلى، اولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه»(٢).

٤ ــ وقد جاء في حديث « ذعلب اليماني » الخطيب النبه الذي كان من صحابة الامام علي(عليه السلام): سأل الامام يوماً هذا السؤال: «هل رأيت ربَّك يا أمير المؤمنين»؟

أجاب الامام: «افأعبد ما لا أرى»؟!

فقال: «وكيف تراه»؟

فقال الامام : « لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان»
ثم أضاف: «قريبٌ من الأشياء غير ملابس، بعيد منها غير مباين»(٣).
ليس مراد الامام من ادراك الله إدراك بالاستدلال العقلي، وهذا واضح، لأن هذا الأمر حاصل لجميع الموحدين وحتى لتلك العجوز صاحبة الغزل المعروفة، فانها تستدل على وجود الله بحركة آلة الغزل التي تحتاج الى محرك، فكيف بالفلك العظيم والسموات والارضين.
فالمراد ــ إذن ــ إدراك لله يفوق الادراك الطبيعي، أي الشهود الباطني، فانه يرى

---

١ – تفسير الصراط المستقيم الجزء ١ الصفحة ٢٦٧.
٢ – نهج البلاغة، الكلمات القصار: ١٤٧.
٣ – نهج البلاغة، الخطبة: ١٧٩.

الله به واضحاً بدرجة وكأنه يراه بعينه. (دققوا).
٥ ــ وقد جاء في حديث معروف للامام امير المؤمنين(عليه السلام):
«لو كشف لي الغطاء ما ازددتُ يقيناً».
أي اني أرى جميع الحقائق من وراء ستار الغيب أراها بالشهود الباطني، وبصيرتي تشق حاجز العيب وتنفذ فيه.
٦ ــ قال الامام علي بن الحسين(عليه السلام):
«ألا إن للعبد أربع أعيُن: عينان يُبصر بهما دينه ودنياه، وعينان يُبْصر بهما أمر آخرته، فاذا أراد الله بعبد خيراً فتح له العينين اللتين في قلبه، فأبصر بهما الغيب وأمر آخرته»(١).
وقد جاءت روايات عن الشيعة الصادقين يشبه مضمونها مضمون هذا الحديث(٢).
٧ ــ ونقرأ في حديث الامام الصادق(عليه السلام): ان الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) رأى يوماً الصحابي «حارثة» فسأله عن حاله.
فاجابه حارثة: «يا رسول الله مؤمن حقّاً»!
فقال رسول(صلى الله عليه وآله): «لكلِّ شيء حقيقةٌ فما حقيقة قولك؟»
فأجابه حارثة: «يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأضمأت هواجري وكأني انظر الى عرش ربي وقد وضع للحساب وكأني انظر الى اهل الجنة يتزاورون في الجنة وكأني اسمع عواء اهل النار في النار».
فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «عبدٌ نوّر الله قلبه أبْصَرْتَ فاثبت».
فقال حارثة: «يا رسول الله ادعُ الله لي أن يرزُقني الشهادة معك».

فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «اللهُمَّ ارزق حارثة الشهادة».
ولم تمضِ أيام كثيرة حتى أرسل الرسول فريقاً لاحدى المعارك وكان معهم

---

١ – خصال الصدوق الصفحة ٢٦٥ الحديث ٩٠.
٢ – بحار الانوار الجزء ٦٧ الصفحة ٥٨ الحديث ٣٥.

حارثة فقاتل وقَتل ثمانية أو تسعة من الأعداء ثم قُتِلَ شهيداً(١).
٨ ــ وقد جـــاء في حديث للرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) نقل في كتب هل السنة : «لولا تكثير في كلامهم وتمريج في قلوبكم لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع»(٢).
إن هذه الأحاديث وأحاديث اخرى من هذا النوع، وضحت العلاقة بين الكشف الروحاني والايمان واليقين، وبينت امكانية حصول الانسان بالتكامل المعنوي ــ على هذا الادراك الذي لا نعلم عنه غير أنه موجود فحسب.
* * *
٣ ــ سبعة منامات صادقة في القرآن المجيد:
إن «الرؤيا الصادقة» احدى فروع الشهود والكشف، والصادقة هي التي تتحق وتطابق الواقع، فتُعد منامات كهذه نوعاً من الكشف.
إن الفلاسفة الروحيين ــ خلافاً للفلاسفة الماديين الذين يعتقدون بأن الاحلام هي وليدة النشاطات اليومية أو الآمال غير المتحققة أو الخوف من الامور المختلفة ــ يعتقدون ان الاحلام تنقسم الى الأقسام التالية:
١ ــ الرؤيا التي تتعلق بالذكرات والميول والآمال.
٢ ــ الرؤيا غير المفهومة والمضطربة ويعبر عنها بـــ «أضغات أحلام» وهي نتيجة قوة الوهم والخيال.
٣ ــ الرؤيا التي تتعلق بالمستقبل وترفع الستار عن بعض أسراره، وبتعبير آخر انها شهود يحصل للانسان وهو نائم.
لا دليل الفلاسفة الماديين على نفي القسم الثالث، بل لدنيا قرائين كثيرة تثبت واقعية هذا القسم من الرؤيا، وقد ذكرنا عدة نماذج حية لا تقبل الرد في التفسير

---

١ – اصول الكافي الجزء ٢ الصفحة ٥٤ باب حقيقة الايمان واليقين الحديث ٣.
٢ – تفسير الميزان الجزء ٢ الصفحة ٢٩٢.

الأمثل(١).

والجدير ذكره ان القرآن ذكر سبعة موارد على الأقل من موارد الرؤيا الصادقة، وذكرها هنا يناسب تفسيرنا الموضوعي:

١ ــ تحدث القرآن في سورة الفتح عن الرؤيا الصادقة للرسول، حيث رأى نفسه مع أصحابه يدخلون مكة لأداء مناسك العمرة وزيارة بيت الله الحرم، فأفصح الرسول عن منامه هذا للمسلمين ففرحوا، إلاّ أنهم تصورا أن الرؤيا هذه تحققت في السنة السادسة عندما حصل صلح الحديبية، ولم يحصل الفتح يومذاك، إلاّ أن الرسول طمئنهم بأن الرؤيا صادقة وستتحق يوماً ما.

وقد أجاب القرآن اولئك الذين شككوا في صدق الرؤيا بقوله:

(لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامِ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوُا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتحاً قَرِيبا)

(الفتح / ٢٧)

تحقق المنام بجزئياته في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة، وقد عرفت العمرة في تلك السنة بـــ «عمرة القضاء» لأن المسلمين كانوا قاصدين أدائها في السنة السادسة، لكن قريش منعتهم منها.

رغم ان المسلمين دخلوا مكة (التي تعتبر مركزاً لقدرة المشركين وسلطانهم) من دون سلاح، إلاّ أنّ ابهتهم كانت مشهودة للأعداء، وقد صدق عليهم تعبير «آمنين» و«لا تخافون» بالكامل فأدوا مراسم زيارة بيت الله وبه تحقق منام الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) بجميع خصوصياته رغم أن تخمين وقوع أمر كهذا كان شبه مستحيل، وهذا من عجائب تاريخ الاسلام.

٢ ــ وقد أشير في سورة الاسراء الى رؤيا اخرى للرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) إشارة عابرة وقصيرة حيث قال تعالى:

---

١ – التفسير الأمثل الجزء ٩ الصفحة ٣١٥ الى ٣١٧.

(وَما جَعَلْنا الرُّؤْيا الّتي أَرَيْناكَ إِلاّ فِتْنَةً لِلنّاسِ وَالشَّجرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلاّ طُغْياناً كَبِيراً)

(الاسراء / ٦٠)

وقد نقل مفسروا الشيعة والسنة حديثاً معروفاً جاء فيه: ان الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)رأى في المنام قروداً ترتقي منبره وتنزل منه، فحزن الرسول من جراء هذا الأمر، لأنه

يحكي عن الحوادث المفاجئة في قيادة المسلمين بعد الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) (إن الكثير فسّرَ المنام بحكومة بني امية، حيث خلفوا لارسول ــ ظلماً ــ واحداً بعد الآخر وأفسدوا في الخلافة، وكانوا فاقدي الشخصية واتبعوا ما كان عليه آباؤهم في الجاهلية)(١).

وادعى البعض ان هذه الرؤيا هي نفس رؤيا دخول مكة، بينما سورة الاسراء نزلت بمكة، والرؤيا كانت في المدينة وقبل حدث صلح الحديبية في السنة السادسة.

وقد رجح البعض مثل الفخر الرازي أن تكون الرؤيا بمعنى المشاهدة في حالة اليقظة، والآية تشير الى مسألة المعراج(٢).

لكن هذا التفسير ضعيف لأن المعنى الأصلي واللغوي للرؤيا هو المشاهدة عند النوم لا لليقظة، وعليه فالصحيح هو التفسير الأول.

أما المراد من «الشجرة الملعونة»، فقد ادعى البعض: إنها هي «شجرة الزقوم» التي تنبت في قعر جهنم طبقاً للآيه (٦٤) من سورة الصافات، وهي طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون طبقاً للآيات (٤٦ و ٤٧) من سورة الدخان.

وادعى بعض آخر: إنها كناية عن اليهود العصاة، فانهم كالشجرة مع ما فيها من غصون وأوراق إلاّ أنّهم ملعونون عند الله.

---

١ – تفسير الفخر الرازي الجزء ٢٠ الصفحة ٢٣٦.

٢ – جاءت هذه الرواية في تفسير القرطبي ومجمع البيان والصافي والفخر الرازي، وقد قال الفيض الكاشاني: إنها من الروايات المشهورة عند العامة والخاصة.

إلاّ انها فُسِّرت في كثير من كتب الشيعة والسنة ببني امية، وقد نقل الفخر الرازي هذا التفسير عن ابن عباس المفسر الاسلامي الكبير(١)، وهذا التفسير يتفق مع رؤية الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) بالكامل.

قد يقال: لِمَ لم يُشِر القرآن الى الشجرة الملعونة في القرآن المجيد؟ إلاّ ان المسألة محلولة بالالتفات الى لعن المنافقين بشدة في سورة محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) الآية (٢٣)، وبني امية من طلائع النفاق في الاسلام.

إضافة الى هذا، فان تعبير القرآن (نُخَوِّفُهُم فَما يَزِيدُهُمْ إِلاّ طُغْياناً كَبِيرا)يصدق عليهم بالكامل.

وقد جاء في رواية أن عدداً من صحابة الامام الصادق(عليه السلام) سألوه نفسه أو أباه(عليه السلام) عن المراد من الشجرة الملعونة في الآية، فأجابهم: «بني امية»(٢).

وقد نقل نفس المضمون عن امير المؤمنين(عليه السلام) وكذلك عن الامام الباقر(عليه السلام)،

وقد ذكر علي بن ابراهيم الروايات الثلاث في تفسيره(٣).
وقد نقل السيوطي في تفسيره «الدر المنثور» روايات كثيرة عن الشجرة الملعونة، ورؤيا الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، حيث فُسِّرت الشجرة الملعونة في بعضها ببني امية وفي بعضها ببني الحكم وبني العاص، وكلهم من شجرة خبيثة واحدة(٤).
وعلى أية حال ، فان رؤيا الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) تحققت بعد رحيله ، وخلفته الشجرة الملعونة نسلا بعد نسل، وكانوا بلاءً عظيماً على المسلمين، وامتحاناً كبيراً لهم.
٣ ــ والرؤيا الصادقة الاخرى هي رؤيا ابراهيم الخليل(عليه السلام) فيما يخص ذبح اسماعيل(عليه السلام)،

---

١ – نقلها القرطبي عن ابن عباس في تفسيره الجزء ٦ الصفحة ٢، ٣٩، ونقلها الفخر الرازي عنه أيضاً في الجزء ٢٠ الصفحة ٢٣٧.
٢ – نور الثقلين الجزء ٣ الصفحة ١٨٠ الحديث ٢٧٨.
٣ – نور الثقلين الجزء ٣ الصفحة ١٨٠ و ١٨١ الحديث ٢٨٢ و ٢٨٣ و ٢٨٦.
٤ – تفسير الميزان الجزء ١٣ الصفحة ١٧٥.

فانه كان محلا لامتحان عظيم للوصل الى مقام الامامة وقيادة الامة الرفيع، فقد أُمر بذبح ابنه العزيز «اسماعيل»، رغم أنّ الأمر أوحي إليه وهو نائم، أي ان الايعاز كان مناماً لا شيئاً آخر، ولنقرأ ما يقوله القرآن في هذا المجال:
(فَلَمّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قالَ يا بُنَىَّ إنِّي أُرى في الْمَنامِ أَني أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرَى قَالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُني إنْ شاء اللهُ مِنَ الصّابِرِينَ)
(الصافات / ١٠٢)
إن التعبير بـــ «أرى» الذي هو فعل مضارع يفيد الاستمرار يدل على أن ابراهيم(عليه السلام) كان يرى الرؤيا كراراً، بحيث حصل له اطمئنان بأن الأمر من الله، ولهذا أجابه اسماعيل بهذا الجواب: (يا أَبتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إنْ شاء اللهُ مِنَ الصّابِرِينَ).
ولهذا السبب نفسه جاء في الآيتين (١٠٤ و ١٠٥) من نفس السورة : (وَنادَيْناهُ أَنْ يا إبْرَاهِيمْ ــ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا).
والحادث هذا ، دليل واضح لأولئك الذين يــقولون بامكانية عــد الرؤيا الصادقة نوعاً من أنواع الوحي للانبياء والرسل، كما أنه قد جاء في بعض الروايات: «إن الرؤيا الصادقة جزء من

سبعين جزءً من النبوة»(١).
وقد شكك بعض الاصوليين في مسألة نسخ الحكم قبل العمل به إلاّ أن كلامهم ــ وكما ذُكِرَ في محله ــ يختص بالأوامر غير الامتحانية، أما في الامتحانية فهو غير صادق، والتعبير بـــ «قد صدَّقَتْ الرؤيا» دليل على أن ابراهيم(عليه السلام)قد أدى ما عليه بما جاء به من تتهيئة المقدمات لهذا الايثار الكبير.
٤ ــ ومن الرؤى الصادقة في القرآن، هي رؤيا يوسف في بيت أبيه، حيث أشارت إليها الآيات الاولى من سورة يوسف:
(إِذْ قالَ يُوسُفُ لاَبِيهِ يا أَبَتِ إنّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ

---

١ – بحار الانواز الجزء ٥٨ الصفحة ١٦٧ و ١٧٧ و ١٧٨.

وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ)
(يوسف / ٤)
تنبأ يعقوب مستقبل يوسف والحوادث المقبلة عليه فبشره: (يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ... وَيَتُمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيكَ وَعَلى آلَ يَعْقُوبْ).
يعتقده بعض المفسرين ان يوسف رأى هذا في المنام وهو في الثانية عشر من عمره، وقد تحقق منامه بعد أربعين سنة حيث جلس على عرش الحكومة في مصر، وجاءه اخوته مع أبويه خاضعين له، أو ساجدين لله شكراً، كما أُشير الى ذلك في نهاية السورة:
(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سَجَّداً وَقالَ يا أَبَتِ هَذا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقّا)
(يوسف / ١٠٠)
إن هذا الحديث يحكي بوضوح عن امكانية تحقق أحلام صادقة منقوشة في قلب طاهر قبل أربعين رغم انه لم يُذكر العدد (٤٠) سنة في آيات القرآن، إلاّ أن المستفاد من قرائن الآيات ان الفاصل بين المنام وتحققه كان طويلا جداً.
وجدير بالذكر هنا أن من ضمن البشائر التي بشر يعقوب بها يوسف هذه البشرى: (وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحاديثِ) (يوسف / ٦).
وهذه الجملة (سواء عنت علم تعبير المنام كما يعتقده كثير من المفسرين أو عنت مفهوماً أوسع من ذلك ليشمل الخبرة والحاطة باصول وأسباب الحوادث ونتائجها)(١)، فانها على كل حال دليل واضحْ على امكانية صدق بعض الرؤى وتحققها عيناً وواقعاً في الخارج.

٥ و ٦ ــ وهما مناما اللذين كانا مع يوسف في السجن عندما كان مسجوناً بذنب طهارته، فيحكي الله قصتهما في نفس السورة ويقول:
(وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قَالَ أَحَدُهُما انِّى أرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقالَ الآخَرُ

---

١ - الميزان الجزء ١١ الصفحة ٨٦.

اِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئنا بِتَأْوِيلِهِ انّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)
(يوسف / ٣٦)
فداعهما يوسف للتوحيد وعبادة الله قبل أن يُأوّل ما رأيا ، ثم قال للذي رأى أنه يعصر خمراً اي عنباً: إنك تخرج من السجن، وقال للذي رأى فوق رأسه خبراً يأكل منه الطير: إنك ستُحال للاعدام وقد تحقق المنامان (من المتعارف في بيئة فاسدة وحكومة جبارة مثل بيئة وحكومة مصر آنذاك حيث يحكم على يوسف بالسجن بذنب العفة والطهارة ، أن يطلق سراح الذي يسالم الحكومة ويحضر الخمر لطغاتها، اما الذين يتحلون بروع الدفاع عن المستضعفين ويعطون خبراً للطيور فيحكم عليهم بالاعدام).
وعلى أي حال ، فان هاتين الرؤيتين اللتين حكاهما القرآن بصراحة يكشفان عن امكان اعتبار الرؤيا كمصدر للمعرفة، بالطبع لا كل رؤيا ولا كل معبّر ومفسر لها.
٧ ــ رؤيا سلطان مصر التي جــاءت في نفس السورة ، وهــي نموذج واضح آخر للرؤيا الصادقة، يحكي القرآن هذه الرؤيا قائلا:
(وَقالَ الْمَلِكُ اِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرات سِمان يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعُ سُنْبُلات خُضْرٍ وَاُخَرَ يابِسات يا أَيُّها الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيايَ اِنْ كُنْتُم لِلرُّؤْيا تَعْبُرُونَ)
(يوسف / ٤٣).
وبما أن حاشية الملك لم يكونوا خبراء بتعبير الرؤيا، قالوا له : «أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين».
يحتمل أنهم أرادوا طمأنة سلطان مصر بحديثهم هذا (ينبغي الالتفات الى أن ملك مصر وفرعونها هو الحاكم العام لمصر، بينما عزيز مصر فهو ــ كما يقول بعض المفسرين ــ وزير الخزينة، واسم فرعون المعاصر ليوسف هو «ريان بن وليد»

واسم عزيز مصر «قطفير او عطفير»(١).
فتذكَّر عندها ساقي الملك الذي أُطلق صراحه من السجن بعد أن رأى الرؤيا وأولها يوسف، فحكى القصة للملك فبعث الملك شخصاً الى يوسف كي يأوّل المنام، فأوله هكذا:
(قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَاَباً فَمآ حَصَدْتّمْ فَذَرُوهُ في سُنْبُلِهِ اِلاّ
قَليلا مِمّا تَاكُلُونَ * ثُمَّ يَاتي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَّاْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ
لَهُنَّ اِلاّ قَليلا مِمّا تُحْصِنُونَ)
(يوسف / ٤٧ ــ ٤٨)
وقد تحقق المنام بعد ذلك، وعندما شاهدوا الصدق والمعرفة في يوسف(عليه السلام)، أطلقوا سراحه، وقد أدى به الأمر أن أصبح عزيز مصر ووزير الخزينة، ثم من بعده أصبح ملك مصر كلها مع سعتها وعمرانها.
* * *

النتيجة:

يستفاد من الآيات السابقة امكانية لاختبار بعض الرؤى مصدراً لإدراك بعض الحقائق، وبتعبير آخر، فان مسألة الكشف والشهود يمكنها أن تحصل في المنام كما تحصل في اليقظة، وهذه الرؤى على ثلاثة أقسام (طبقاً للآيات الماضية):
١ ــ بعض تتحقق في الخارج عيناً من دون أي تغيير، مثل رؤيا الرسول، زيارته مع الصحابة لبيت الله الحرام التي جاءت في سورة الفتح.
٢ ــ منامات تتحقق وهي بخاحة الى تفسير وتعبير، وتتحقق بتفسيرها لا بعينها،

---

١ – نقل هذا المضمون في التفسير الكبير للفخر الرازي الجزء ١٨ الصفحة ١٠٨ (وللتفصيل يراجع «اعلام القرآن» الصفحة٦٧٣، كما قد صرّح «ابو الفتوح الرازي» أن نهاية يوسف وصوله الى سلطة مصر» تفسير أبي الفتوح الجزء ٦ الصفحة ٤٠١.

ولا يفسرها إلاّ الخبير بها، مثل المنامات الأربعة التي حصلت ليوسف ولصديقه في السجن ولملك مصر، وقد ذكرت كلها في سورة يوسف.
٣ ــ الرؤيا التي فيها جانب حكم وإيعاز، وتُعدُّ نوعاً من الوحي يحصل عند النوم مثل رؤيا ابراهيم(عليه السلام).
بالطــبع ليس مفهوم الكلام هذا أن كل حلم يُعدُّ كشفاً أو شهوداً ، بل إن كــثيراً من المنامات

تُعدُّ أضغاث أحلام، وتفتقد لأي معنىً، وهي رؤى ناتجة عن نشاط قوة الوهم، أو عم الحرمان والكبت والمآسي والانزعاج والتألّم.

* * *

سؤال؟

قد يســـأل البعض عن المنامـــات التي تتعلق بحوادث المستقبل ، فهل هي نوع من العلم؟ أم هي (كما يعتقد فرويد العالم النفساني المعروف) لا شيء سوى إرضاء للشهوات والميول المكبوتة والحرمان الحاصل للانسان، فتتجلى له في المنام مع تغيّر وتبدّل لخداع « الأنا » ولإرضاء الشهوة المكبوتة فان الحلم إشباع خيالي لها ، وقد ينعكس هذا الميل بنفسه عيناً في الحلم (مثل رؤية عاشق لمعشوقته الفقيدة عيناً) وقد ينعكس في منامه مع تغيير وتبديل ، فيحتاج الى تعبير وتفسير
حينها.

* * *

الجواب:

إن ما يقوله فرويد هو فرضية لا أكثر ، وفي الحقيقة لا دليل على ما يدعيه أبداً ، فقد تكون بعض المنامات مصادقاً لما يدعيه ، أما كون الاحلام كلها من هذا القبيل

فهذا ما لا دليل له عليه(١).
نحن نعتقد أن للمنامات أقساماً، وقسم منها هو الرؤيا الصادقة، ونعدها وسيلة للكشف أي كشف بعض الحقائق ، وهذه حقيقة استفدناها من القرآن (الذي هو وحي الهي) بالدرجة الاولى، وبالدرجة الثانية من التجارب التي حصلت في هذ المجال، ليس المراد تلك الحكايات التي لا سند لها، بل المراد الحوادث التي وقعت لشخصيات كبيرة ومعروفة في عصرنا أو في العصور الماضية، وقد نقلوا هذه المنامات في كتبهم (وقد أشرنا الى بعض من نماذجها الواضحة في الجزء التاسع من التفسير الأمثل).
ومن هنا يعرف انه لا يمكن عدّ الرؤيا لوحدها مصدراً للمعرفة، ولهذا يقال بعدم حجية الرؤيا، بل ينبغي ضم قرائن من الخارج موضحة ولا تقبل النفي، لتصحب الرؤيا مصدراً مقبولا للمعرفة.

* * *

٤ ــ المكاشافات الرحمانية والمكاشفات الشيطانية:

قد نستغني عن التذكير بأنه كما يوجد كشف وشهود واقعي يحصل تارة بالايمان واليقين الكامل ، وتارة اخرى بالرياضات النفسية، فانه يوجد كشف وشهود وهمي كثير ، فقد يحصل هذا الكشف بسبب التلقينات المكررة وانحراف الذهن والفكر عن جادة الصواب، وتارة بسبب الالقاءات الشيطانية ، فتتمثل في ذهن الانسان صور وحوادث لا واقع لها ، إنها مجموتة أوهام لا أكثر ، ومن هذا القبيل الكشف والشهود الذي يدعيه كثير من « الصوفية »، فان المريد البسيط يعتقد في بداية عمله (من جراء الاعلام والدعاية التي يتلقاها من البعض) أنه

---

١ – لم يكشف العلماء منشأ النوم (لا المنام) بعد، فلا يعلمون هل أنّ منشأه نشاط فيزياوي أو كيمياوي أو كلاهما، أو ناشيء عن نشاط الجهاز العصبي، فاذا كان النوم نفسه لغزاً لم يُحل بعدُ، فكيف يمكن القول بحل مسألة المنام التي هي أعقد من مسألة النوم أضعافاً مضاعفة!.

ينبغي له أن يرى مرشده الحقيقي في المنام ، وتقوى هذه الفكرة عنده كل يوم، فيتوقع في كل يوم رؤية جمال مرشده ومراده في عالم الرؤيا يزوره ويرشده (عالباً ما يضع أشخاصاً معينين نصب عينيه لهذا المنصب ، واذا لم يعينهم بالدقة فانه يعين صفات ومميزات خاصة لهم).

قد يفقد هذا الصوفي تعادل فكره الطبيعي من جراء الرياضات الشاقة وانحراف المزاج ، فتزداد قدرة الوهم عنده ، فيرى في المنام يوماً أشخاصاً قريبين ــ من حيث الصفات والميزات ــ من الأشخاص الذين رسمهم في ذهنه، وقد يتطابقان في الصفات بالكامل، وقد يحصل هذا في عالم اليقظة، لأن عيني هذا السالك البسيط راحلة الى الطريق، واُذنيه صاغية إليه دائماً: فتنمو هذه الفكرة عنده ليلا ونهاراً ، وقد تصنع قوة الوهم عنده ــ لا إرادياً ــ صوتاً ينقر اُذنه، أو تتمثل أمامه صورة، فيتخذها أساس اعتقاده.

كما أن الاستماع الى المواضيع المؤنسة والمنشطة (التي قد تبين في اطار أشارات جميلة وتتزامن مع الحان مخذّرة، يزيد م تأثير التلقينات عليه أضعافاً مضاعفة.

إن تلك الفرقة من الصوفية التي تؤيد « الوجد والسماع »(١)، يذوبون فيهما بشكل حيث يفقدون توازنهم ، ويُعطِّل العقل عندهم ، فيترك الساحة فارغة لقوة الوهم ، وأولئك الغامرون في وهم الكشف والشهود ومشاهدة عالم الغيب يسيرون في عوالم خيالية تتوقف سعتها على شدة الوهم والخيال عندهم ، فتتمثل أمامهم صور مثل بحار النور ، وجبل الطور ،

والسموات السبع والارضين السبع، وكلما مالت قوة الوهم عندهم الى شكل أو صورة، تمثل ذلك الشكل او تلك الصورة أمام أعينهم.

---

١ – المراد من المساع، الألحان الموسيقية أو نغمات المطربين الدارجة في بعض مجالس الصوفيين، والمراد من الجد، الذوق والشوق واللهفة التي تحصل للصوفيين الذين يحسنون السماع ويقترن مع حركات تشبه الرقص.

[٢٥٩]

إنهم يفرحون لهذه اللـــحظات كثيراً ، وكأنـــهم التقوا بالمراد وعانقوه ، فيصرخون وتعلو اصواتهم، مما يزيد ويفاقم هذه الحالة عندهم، ثم يرمون بحالة شبيه بالاغماء ، وبعدما يصحون ويهدءون من هذه الحالة ، يحكون للناس ما رأوا ظناً منهم أنه كشف.
إنـــهم في الحقيقة يسعون نـــحو السراب ظناً منهم أنه مـــاء ، ورغم عدم وصولـــهم الى شيء، يبتلون بأمور بعيدة عن الحق والحقيقة.
وبعبارة مختصرة: لا يمكننا تصديق كل من ادعى الكشف والشهود، وكذا لا يمكننا اعتبار كل تمثل وكل نداء إلهياً واقعياً، وذلك لأن هناك كشفاً شيطانياً.
وقد جاء في حديث للامام علي(عليه السلام) مع حسن البصري: أن الامام(عليه السلام) مر بالحسن البصري وهو يتوضأ فقال: يا حسن اسبغ الوضوء، فقال: يا امير المؤمنين لقد قتلت بالامس اناساً يشهدون ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله، يصلون الخمس، ويسبغون الوضوء. فقال له امير المؤمنين(عليه السلام): قد كان ما رأيت فما منعك ان تعين علينا عدونا. فقال: والله لأصدقنك يا امير المؤمنين لقد خرجت في اول يوم فاغتسلت وتحنطت وصببت عليّ سلاحي وانا لا شك في ان التخلف عن ام المؤمنين عائشة هو الكفر، فلما انتهيت الى موضع من الخريبة ناداني مناد «يا حسن الى اين ارجع فان القاتل والمقتول في النار» فرجعت ذعراً وجلست في بيتي، فلما كان في اليوم الثاني لم أشك ان التخلف عن ام المؤمنين عائشة هو الكفر، فتحنطت، وصببت عليّ سلاحي وخرجت اريد القتال، حتى انهيت الى موضع من الخريبة فناداني مناد من خلفي: «يا حسن الى اين مرةً بعد اخرى فان القاتل والمقتول في النار» قال علي(عليه السلام): صدقك افتدري من ذلك المنادي؟ قال: لا. قال(عليه السلام): ذاك اخوك ابليس، وصدقك ان القاتل والمقتول منهم في النار، فقال الحسن البصري الآن عرفت يا اميرالمؤمنين ان

[٢٦٠]

القوم هلكى(١).

إن نداءات كهذه أشير إليها في القرآن بصفة وحي الشياطين ، حيث يقول تعالى في سورة الانعام الآية (١١٢): (وكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً شَياطِينَ الإنْسِ وَالْجِنَّ بَعْضُهُمْ اِلى بَعْض زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورا).

إنها نوع من الامتحان للتمييز بين صفوف المؤمنين وغيرهم، فقد جاء في الآية (١٢١) من نفس السورة:

(وَاِنَّ الشَّياطِيْنَ لَيُوحُونَ اِلى أَوْلِيائِهم)

وللسبب الذي مضى، نرى كتب الصوفيين مليئة بهذا النوع من المكاشفات، مكاشفات غريبة وموحشة، ومردوداتها السلبية كثيرة، نشير الى بعض منها هنا بشكل مختصر:

١ ــ كتب محي الدين العربي في كتابه «مسامرة الأبرار» إن الرجبيين لأشخاص مرتضاون برياضات خاصة، ومن صفاتهم أنهم يرون الرافضين (الشيعة) في حالة الكشف في صورة خنازير.

٢ ــ وكتب الشيخ عطار في كتابه «تذكرة للأولياء» عن «يزيد البسطامي»: طِفْتُ البيت فترة، وعندما وصلت الى الحق، رأيت أن الكعبة تطوف حولي!... إن الله بلغ بي الى درجة حيث أستطيع أن أرى الخلق جملة بين اصبعي!!(٢).

٣ ــ وقد جاء في نفس الكتاب، أن يزيد قال: عرض عليَّ الحقُ الفي مقام عنده وفي كل مقام سلطان، وما قبلتُ(٣).

إن هذه إدعاءات لم تُسمع من نبي مرسل ولا من إمام معصوم ، بل إن

أدعيتهم ومناجاتهم في جنب بيت الله التي تكون في غاية التذلل والتواضع تكشف عن أن كشفاً كهذا إن لم يكن فهو ــ قطعاً ــ أوهام وتخيلات شيطانية ترتسم

---

١ – احتجاج الطبرسي الجزء ١ الصفحة ٢٥٠.

٢ – تذكرة الاولياء الصحفة ١٠٢.

٣ – تذكرة الاولياء الصفحة ١٠١.

في أذهان البعض، لأسباب وعوامل مختلفة، أشرنا الى بعضها سابقاً ، وإن سعة هذه الأوهام تتوقف على مدى وطول امنيات الشخص وتخيلاته.

* * *

سؤال:

ثمت سؤال يطرح نفسه هنا، وهو: هل من طريق لتمييز المكاشفات «الرحمانية» عن «الشيطانية» و«الحقيقية» عن «الوهمية» أم لا؟

* * *

الجواب:

نعم توجد ثلاث علائم تتميز بها ــ اجمالا ــ المكاشفات الشيطانية عن الرحمانية، وهي: إن الرحمانية اضافة الى كونها يقينية وقطعية تقترن بمستوى عال من الايمان واليقين والمعرفة والاخلاص والتوحيد والعمل الصالح. بينما تفتقد المكاشفات الشيطانية هذه المواصفات، وعلى هذا الأساس فلا اعتبار يقول من يدعي المكاشفات الرحمانية وهو يفتقد هذه المواصفات.

ولقد قرأنا في رواية مضت أن الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «العلم نورٌ يقذفه الله في قلب من يحب، فينفتح له، ويشاهد الغيب، وينشرح صدره فيتحمل البلاء، قيل: يا رسول الله وهل لذلك من علامة؟ قال: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله».(١)

ثم إن المكاشفات الحقيقية تتفق دائماً مع الكتاب والسنة، وفي نفس الاتجاه الذي يتجه إليه كلام الله والمعصومين (عليهم السلام)، ولا تميل بقدر لأنملة عن جادة الاطاعة الربانية، وغير ملوّثة بأصغر إثم أو ذنب.

وثالثاً، إن محتوى المكاشفات الحقيقية تتفق دائماً مع العقل اتفاقاً كاملا، وتكون بعيدة عن الامنيات والأوهام غير المعقولة ، فالذي يقول: «إني رأيت

---

١ – تفسير الصراط المستقيم الجزء ١ الصفحة ٢٦٧.

الرافضية ــ مكاشفة ــ كالخنازير»، في الحقيقة رأى نفسه في مرآة ذاته. والذي يقول: «عندما وصلت الى الحق، فرأيت بيت الله يطوف حولي» فانه مُصاب بوكع في رأسه، وشخصاً كهذا يرى نفسه مستغنياً عن الطواف، ويرى الطواف أدنى من شأنه، بينما الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) بعظمته لم ير نفسه مستغنياً عن ذلك، وقد حج حتى في آخر سنة من عمره الشريف ودى المناسك.

وآخر الحديث في الكشف والشهود هو هذا:
لا يمكن عدّ الكشف والشهود كمصدر عام للمعرفة مثل «العقل» و«الحس» و«التاريخ» بل انه مصدر خاص، وله شروط ومواصفات صعبة (دقِّق).

* * *

[٢٦٣]

حُجُب المعرفة

وآفاتها

[٢٦٤]

[٢٦٥]

حُجُب المعرفة وآفاتها

تمهيد:

توقفنا حتى الآن ــ في طينا الطُرُق العلم والمعرفة ــ في محطات واجتزناها.
لقد قبلنا وجود واقعيات خارج اطار الذهن، وقبلنا كذلك امكانية إدراك تلك الواقعيات الى حد ما، وقد عرفنا بدقة مصادر المعرفة الستة.
كما علمنا أن خمسةً من مصادر المعرفة أي «الحس» و«العقل» و«الفطرة» و «التاريخ » و « الــوحي » عــامة ويستطيع الــجميع الاستعانة بها للوصــول الى المعرفة المرادة، إلاّ أن المصدر السادس وهو الشهود الباطني مصدر خاص بفريق من المؤمنين وأولياء الله، ولا يعم الجميع.
بقي محطتان ينبغي العبور منهما للوصول الى المراد ، الاولى « مواضع طرق المعرفة »، والاخرى «ممهدات المعرفة»، والبحث الآن يصب في الموانع.
مما لا شك فيه : ان العين لوحدها لا تكفي لرؤية الأشياء والأشخاص، بل ينبغي أن لا يكون هناك حجاب يحول دون الرؤية ، فان كان هــناك دخان أسود أو غبار أو ضباب غليظ بيننا وبين الشيء المراد رؤيته فانّا لا نرى ما أمامنا وحوالينا القريب مــنّا ، فضلا عن البعيد ، كذا الأمر بالنسبة للشمس فلا يمكن رؤيتها إذا حالت الغيوم بينها وبيننا رغم نورها الساطع.
إذا لبس شخص نظارة سوداء ، فطبيعي أن لا يرى شيئاً ، واذا لبس نــظارة

ملونة فانه سيرى الاشياء ملونة كذلك (حسب لون نظارته)، وإذا كان عدستا نظراته غير مصقولتين جيداً فانه سيرى الاشياء معوجة ، واذا كان شخص مبتل بمرض اليرقان فانه سيرى الأشياء صفراء، وإذا كان أحولا فانه سيرى صوراً لا تتطابق مع الواقع.

وأمثال هذه الموانع بالضبط قد تحصل للعقل والفطرة ، وقد تحصل موانع في فهم التاريخ وحتى الوحي وكلمات المعصومين(عليهم السلام)، فقد يُساء فهمه لنفس الموانع والحجب التي تحصل للانسان في مصادر المعرفة الاخرى، ومن هنا نفهم أهمية بحث موانع المعرفة وندرك أهمية العلم بها للوصول الى المعرفة.

وبما أن القرآن منطلق بحثنا في التفسير الموضوعي، فنسعى لمعرفة الموانع والحجب التي ذكرت فيه بالدرجة الاولى، لأنه هو أساس بحثنا.

بَحَثَ القرآن موانع المعرفة بنحوين: الاول بحوث كلية و «منذرة» والثاني: بحوث جزئية و«تعليمية»، ونذهب الآن الى البحوث الكلية.

* * *

حُجُب المعرفة:

نصغي خاشعين أولا الى الآيات التالية:

(اَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سوءُ عَمَلِهِ فَرآهُ حَسَناً) (فاطر / ٨)

٢ ــ (وَلكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ) (الانعام / ٤٣)

٣ ــ (فَأَمّا الَّذِيْنَ فِي قُلُوبِهِمْ زيغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ) (آل عمران / ٧)

٤ ــ (كَلاّ بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ)

(المطففين / ١٤)

٥ ــ (لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِيْنَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) (الحج / ٥٣)

٦ ــ (وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفي آذانِهِمْ وَقْراً) (الاسراء / ٤٦)

٧ ــ (وَقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلا ما يُؤْمِنُون) (البقرة / ٨٨)

٨ ــ (وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِم فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ) (الاعراف / ١٠٠)

٩ ــ (وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ) (التوبة / ٨٧)

١٠ ــ (خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصارِهِمْ غُشَاوَةٌ) (البقرة / ٧)

١١ ــ (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشاوَةً) (الجاثية / ٢٣)

١٢ ــ (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوب أَقْفالُها) (محمد / ٢٤)

١٣ ــ (أَنَّها لا تَعْمَى الأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتي فِي الصُّدُورِ) (الحج / ٤٦)

١٤ ــ (لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالاَنْعامِ بَلْ هُمْ اَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلونَ)

(الأعراف / ١٧٩)

* * *

شرح المفردات:

قبل كل شيء ينبغي الخوض في البحث عن المفردات الجميلة التي استعملت في الآيات السابقة التي أشارت الى حجب المعرفة وموانعها، لأن كلا منها تشير الى مرحلة من مراحل انحراف ذهن الانسان وحرمانه من المعرفة، فتبدأ بالمراحل الأضعف، وتنتهي بمراحل أشد وأقوى من الحرمان بحيث تسلب الانسان قدرته على التمييز، بل تصوّر له الحقائق بالعكس فيرى الشيطان ــ من جرائها ــ مَلَكاً بريئاً، والقُبح حُسناً، والباطل حقاً!

* * *

إنّ «زيغ» تــعني ــ كما يقول كثير من أئــمة اللغة ــ الانــحراف ، أو الانــحراف عن الحق والحقيقة، ولهذا جاء في القرآن: (رَبّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا)(١).

و« رَانَ » من مادة « رَيْن » وهو الصدأ الذي يــصيب بعض الفلزات هذا ما قاله الراغب في مفرداته، وقد قال بعض أهل اللغة: « إنّه يشر أحمر يرتسب من الهواء ويظهر على بعض المعادن مثل الحديد». وهذا الصدأ علامة للتفسخ والتلف وزوال شفافية ولمعان الفلز.

وقد فسر البعض هذه المفردة بــ «غلبة أمر على أمر آخر» أو «الوقوع فيما لا مخرج منه».

---

١ - آل عمران: ٨.

وقد قيل للشراب «رَيْنه» لانه يتغلب على العقل(١).

«الوَقْر» هو الثقل في السمع بدرجة يستصحب السمع بها.

أمّا «الوِقْر» فهو الثقل الذي يوضع على ظهر الانسان أو رأسه، كما يقال «وِقْر للحمل الثقيل، ولهذا قيل لصاحب العقل «ذي وقار».

« الغشاوة » تطلق على كل شيء غطّى شيئاً آخر ، ومن هذا الباب قيل للستارة غشاوة، وقد أُطلق، «غاشية» على يوم القيامة من حيث ان الخوف الناشيء منها يغطي جميع الناس ويخيّم عليهم، وقد اطلقت هذه المفردة على الليل الأظلم كذلك لأنه كالستار يغطي الأرض ، كما اطلقت على « الخيمة » كذلك.

« أكِنة » جمع كِنان ، وفي الاصل تعني غطاء يُستر به شيء ، و « الكِنّ » يعني الوعاء الذي تحفظ به الأشياء، وقد أطلقت هذه المفردة على البيت أو على أي شيء يحفظ الانسان من الحرارة والبرودة، وجعل الأكِنة على القلوب يعني: سلب قدرتها في التمييز.

«الغُلْف» جمع «أغلُف» ومن مادة «غِلاف» وتعني غلاف السيف او غلاف أي شيء آخر، و«قلوب غلف» تعني قلوباً لا تفهم ولا تعي شيئاً، وكأنها مُغلَّفة.

« قَسَتْ » من مادة « قَسْوَة » ، وَالقساوة تعنى الصلابة والغلظة ، ويقال للدراهم الزائفة « قسّي »، والقلوب القاسية هي الصلبة والغليظة تجاه الحق والعدالة.

و« نَطْبع » من مادة « طَبْع » ويعني الختم النقش، ومن هذا الباب تستعمل المفردة هذه في مجال المسكوكات الذهبية والفضية ، ويقال للخاتم الذي تختم به الكتب والرسائل طابع، وعندما تستعمل هذه المفردة في مجال العقل فتعني أنه مُغطًّى ومختوم عليه فلا يفهم ولا يعي شيئاً ، وكأن أبوابه مغلقة ومختوم عليها ، أما مفردة « طَبَع » فتعني الصدأ الذي يعلو السيف كما تطلق على المعاصي والذنوب

---

١ – تفسير الفخر الرازي ذيل الآية ١٤ من سورة المطففين والمنجد مادة (رين).

التي تعلو القلب وتغطيه.

و« الخَتْم » يعني الانتهاء والفراغ من الشيء ، وبما أن الرسائل تختم عند الفراغ منها ، قبل لوسيلة الختم خاتم، وفي الماضي كان كثير من الناس ينقشون أسمائهم على نصوص ما يتختمون به ، فيختمون بها الرسائل ، ولهذا أُطلق على خاتم اليد خاتماً.

وكان وما زال العرف (اذا ارادوا أن يغلقوا بيتاً أو صندوقاً بحيث لا يفتحه أحد) يغلقون الباب

أولا بحبل أو قفل ، ثم يصبون مادة لصقة أو طين لزج على القفل أو الحبل ثم يختمون على تلك المادة ، بحيث اذا أراد شخصٌ فتح الباب أو الصندوق اضطرَّ لأن يكسر الختم.

إن استعمال القرآن لهذه المفردة في مجال العقول ، إشارة الى انها عقول مقفلة ومختوم عليها ولا تعي شيئاً بدرجة لا يمكن طريق فيها نحو العلم والمعرفة.

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

٤النفوذ التدريجي لآفات المعرفة: (الانحرافات والرين والأمراض والأكنة والأقفال):

كما قلنا سابقاً: إن أهمية بحث «موانع المعرفة» تستدعي عرض الموضوع في مرحلتين:

المرحلة الاولى: ونبحث فيها ــ اجمالا ــ عن وجود الموانع والحجب وكيفية تأثيرها على العقل، وكيفية تلوث مصادر المعرفة بها تدريجياً، الى درجة تنتهي الى تعطيلها.

المرحلة الثانية: ونبحث فيها عن جزئيات وخصائص كل من هذا الموانع والآفات وللقرآن بحث واسع وجذّاب في هذا المجال.

وتذهب في البداية الى المرحلة الاولى، ومما تجدر الاشارة إليه، هو ان القرآن تحدث عن موانع المعرفة والآفات ونفوذها التدريجي والغامض، بشكل حيث

عرّف سالكي طريق العلم، والمعرفة بها تعريفاً كاملا، وأنذرهم كراراً بأن لا يفنوا عمرهم ساعين نحو السراب ظناً منهم أنه ماء، وبعد سنوات من السعي الحثيث ينتهون الى الباطل.

* * *

والآن نبحث معاً الآيات المذكورة:

الحديث في الآية الاولي والثانية يدور حول تزيين الاعمال، فتارة يزينها الشيطان للانسان (كما جاء ذلك في الآية الثانية) وتارة تكون ذهنيات الانسان ونفسه أو عوامل اخرى هي التي تزين للانسان سوء أعماله (كما جاء ذلك في الآية الاولى، حيث ان العفل فيها مبني للمجهول) فقالت: (اَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سوء عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فإن الله يُضلُّ مَنْ يَشاء وَيَهْدي منْ يشاء) فان الاول يتجه نحو الهاوية والثاني نحو الصراط المستقيم، واذا ما صدر منه عملٌ سيءٌ أسرع الى التوبة وجبران ما عمل.

وتضيف الآية الثانية: إن قلب الانسان يقسو في المرحلة الاولى، ثم يتأهل لتقبل وسوسة الشيطان فتتمثل الأعمال السيئة حسنةً أمامه، ومن هنا نرى بعض الناس غير نادمين على أعمالهم السيئة، بل قد يفرحون ويتباهون بها، ويصرون على منطقيتها وصحتها.

وقد حصل هذا الأمر لأخوة يوسف، فعندما ألقوه في البئر وجاءوا أباهم بقميصه ملطخاً بدم كاذب ادعوا أكل الذئب له، وانهم صادقون في كلامهم.

فأجابهم أبوهم: (بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً) (يوسف / ١٨).

أي ظننتم أنكم أحسنتم عملا بهذه الجـريمة ، وانكـم ستحلون مـحل يوسف في قلبي، وأن يوسف انتهى أمره الى الأبد، غافلين عن أنكم تهيؤن

[٢٧٢]

بعملكم هذا مقدمات عزه وسلطانه، وان مكانه سيبقى فارغاً في قلبي حتى أراه مرة اُخرى.

وممّا يستحق الاشارة إليه هو ان القرآن ينسب تزيين الأعمال تارة للشيطان وتارة لنفس الانسان، وتارة يأتي التزيين في صيغة فعل مبني للمجهول وتارة ينسبه الى الله تـعالى كما جـاء ذلك في الآية (٤) من سورة النحل: (اِنَّ الَّذِينَ لا يُـؤْمِنُونَ بـالآخِرَةِ زَيَّنـا لَهُمْ اَعمـالَهم) ، وهذه ترجع الى أن مـقدمات هذا الأمر تبدأ من نفس الانسان، فيتمسك بها الشيطان ويفعل فعلته ، وبما أن الله سبب الأسباب وخالق العلل والمعلولات فتنسب إليه نتيجة الأعمال، وتقتضي حكمته بأن يبتلي البعض بمصير كهذا وما أصعب حال الذي تتمثل السيئات أمامه حسنات!

* * *

وقد تحدثت الآية الثالثة عن المراحل الاولى لانحراف القلب، وبعد تقسيمها للآيات الى محكمات (وهي ذات المفاهيم الواضحة) ومتشابهات (وهي ذات المعاني المعقدة) قالت: (فَأَمّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وابتغاءَ تَأويلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأويلَهُ إلاّ الله والراسخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا)، فالراسخون في العلم يفسرون المشتشابهات بالمحكمات، واما الذين في قلوبهم زيغ فيأخذون بالمتشابهات ويفسرونها برأيهم ابتغاء الفتنة.

إنهم يتمسكون بما تشابه من القرآن لتبرير نواياهم غير الخالصة، ولهذا نرى كثيراً من المنافقين وأصحاب البدع وأتباع المذاهب المنحرفة يستغلون صفاء قلوب المخلصين والمؤمنين بآيات الله بالكامل ، ويبررون بدعهم بالاستعانة بـ « التفسير بالرأي » والاستعانة بالآيات المتشابهة. وبتعبير آخر: بما

[٢٧٣]

أن قلوبهم وأفكارهم منحرفة فيرون آيات الله منحرفة ايضاً، كالمرآة المعوجة تنعكس فيها الصور معوجة.

* * *

والآية الرابعة تشير الى الصدأ والرين الذي يعلوا القلوب ، فإنه كالغبار الذي يـــعلو القلوب بسبب الذنوب والمعاصي ، فيتراكم الغبار عليها حتى تتحجر ، ويغطي الصدأ القلب كله، حيث قالت الآية: (كَلاّ بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِم
ما كانُوُا يَكسِبُون)فلا عجب في عدم تمكّنهم من رؤية الحقيقة.

* * *

وتحدثت الآية الخامسة عن تفاقم الحالة السابقة وتبدلها الى مرض باطني، فبعد إشارتها الى الالقاءات والوساوس الشيطانية حتى للانبياء والمرسلين قالت: (لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِيْنَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ).

نعم، إن هذه القلوب التي لا تستلذ بطعم الحقيقة، بسبب مرضها، وحلاوة الحقيقة عندما كالمرارة، مؤهلة لوسوسة الشياطين.

ومما يلتف النظر هنا أن جملة (فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ). تكررت اثنا عشر مرة في القرآن، مما يكشف الأهمية التي أولاها الله لهذه المسألة، مع الالتفات الى أن أغلب هذه الآيات عنت المنافقين وصُرّح بذلك في عدد منها(١).

إلاّ أن المرض جاء في بعض من هذه الآيات بمعنى «الشهوات والميول والهوى»، كما هو الحال في الآية (٣٢) من سورة الاحزاب، حيث يقول فيها تعالى: (فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَولِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ).

وعلى أية حال ، فان المستفاد من الآيـــات هو أن الانسان كما يصاب جسمه بامراض، كذلك روحه فانها قد تصاب أمراض سببها «النفاق» تارة و«الاهواء والميول» تارة اخرى، وتغيّر عند عروضها ــ ذائقة روح الانسان بالكامل، كما

---

١ – الانفال: ٤٩، والاحزاب: ١٢ و ٣٢.

نرى ذلك في أمراض الجسم فقد تُغير مزاجه بشكل تجعله يستلذ بالأغذية الشاذة والكريهة ولا يستلذ بالأكلات اللذيذة والمفيدة، فان انساناً كهذا غير قادر على إدراك الحقائق ووعي الامور وفهمها.

ومن الـــمؤسف أنّهم كما استمروا في طريقهم كلـــما تفاقـــم عندهم المرض ، فاذا كانوا في مرحلة الشك. فسيتفاقم عندهم ويشتد ويصل تدريجياً الى مرحلة الانكار ومن الانكار الى مرحلة أخطر وهي الاستهزاء ومخالفة الحق، يقول القرآن في هذا المجال: (فِي

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمْ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ) (البقرة / ١٠).

* * *

تحدثت الآية السادسة عن جعل الأكنة والحجب على القلوب، وليس حجاباً واحداً بل حُجب وأكنة وذلك للحيلولة دون فمهم القرآن، حيث جاء فيها: (وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِم وَقْراً).

ذكر بعض المفسرين أن التعبير بالأكنة يدل على تعدد الكِنان(١). ومما لا شك فيه أنه لم يجعل وقر في آذانهم الظاهرية بل الروحية كي لا يسمعون من الحق شيئاً، كما لم تجعل الأكنة على القلوب التي هي وسيلة نضح الدم في الأوعية، بل جعلت الأكنة على أرواحهم وعقولهم.

وقد وقع كثير من المفسرين ــ عند الاجابة على هذه المسألة ــ في إشكال، فتارة قالوا: انها معجزة حيث كان الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) يختفي عن انظار اعدائه المعاندين، فلا يكادون يسمعون شيئاً من كلامه، وذلك كي لا يؤذوه(صلى الله عليه وآله وسلم)، وتارة قالوا، إن الله يمنع لطفه عن اشخاص كهؤلاء فيتركهم لحالهم، وهذا هو معنى جعل الأكنة على القلوب والوقر في الآذان.

---

١ – روح المعاني الجزء ١٥ الصفحة ٨٢.

إلاّ أن ظاهر هذه الآية (التي تماثل آيات اخرى من القرآن) شيء آخر ،

وفي الحقيقة إن هذه استعمالات مجازية في حق المعاندين والمعصبين والمغرورين والغارقين في الاثم، وبتعبير آخر: ان حرمانهم من إدراك الحقيقة نتيجة لــصفائهم وأفعالهم القبيحة ، فقد جــعل الله هذه الميزة في هذه الأعــمال ، فهي كخاصية القتل بالنسبة للسلم، فلا يُلام خالق السم والنار إذا فتناول شخص سماً أو ألقى نفسه في النار فمات ، فانه في مورد كــهذا ينبغي لوم القائم بالعمل فقط.

* * *

وقد نقلت الآية السابعة ما كان يقوله اليهود للرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) أو الانبياء الاخرين، حيث كانوا يقولون: (وَقالُوا قُلُوبنا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلا ما يُؤْمُنُون)، نعم لعنهم الله لكفهرم، وأبعدهم عن رحمته، وإن اشخاصاً كاليهود كيف يمكنهم استذواق حلاوة الحقيقة.

قد يكون التعبير بـــ «الغلاف» يختلف عن التعبير بـــ «الأكنة»، وذلك لأن الغلاف يستر المغلَّف ويغطيه من الجهات، بينما يغطي الستار جهة واحدة من المستور، وبتعبير آخر: تارة تعُطّل الموانع مصادراً واحداً من مصادر المعرفة كالفطرة لوحدها أو العقل لوحده، وتارة اخرى تعطل جميع المصادر وتجعلها في غلاف يحول دون المعرفة.

نعم، كلما تلوّث الانسان بالذنوب والفساد أكثر ابتعد عقله وروحه من المعرفة وحُرِم منها اكثر.

* * *

وتحدثت الآية الثامنة والتاسعة عن الطبع على القلوب الذي يحول دون

المعرفة، وقد اعتبرت الآية الثامنة الطبع سبباً لعدم السمع (فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ)، واعتبرت الآية التاسعة الطبع سبباً لعدم الفقه والفهم (فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ)، والمراد في الموردين واحد، فكما قلنا: إن المراد من عدم السمع هو عدم الادراك والوعي والفهم.

وهذه المرحلة أشد من المراحل السابقة، فالمرحلة الاولى هي جعل الاكنة على القلوب، ثم الغلاف عليها، وفي النهاية يطبع عليها للحيلولة دون نفوذ أي شيء فيها، كما ذكرنا ذلك في بحث شرح المفردات.

طبعاً: إن ابتلائهم بهذا المصير ليس اعتباطياً، بل لأسباب أشارت إليها لآية السابقة حيث قالت: (إِذا أنزلت سُورةٌ أن آمِنوا بالله وَجاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتأذَنَك أُولُوا الطوْل مِنْهُمْ وَقالُوْا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ القاعدِين رضوا بأن يكونوا مع الخوالِف وَطُبع عَلى قُلوبِهم فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ).

إذن إعراضهم عن الجهاد وتــخلفهم عــنه هــو السبب في الــطبع على القلوب.

وآية اخرى أشارت الى سبب آخر من أسباب الطبع، حيث قالت: (أوَلَمْ يهدِ لِلَّذينَ يَرِثُونَ الأرْضَ مِنْ بَعد أهلها أنْ لَو نَشاء أصبْناهُم بِذُنُوبِهِم) أي انهم يذنبون رغم رؤيتهم وعملهم بأحوال السابقين وابتلائهم بالعذاب الالهي من جراء ذنبوهم، فطبع على قلوبهم.

ومما يذكر هنا ان الطبع جاء في الآية الثامنة بصيغة المضارع «نطبع» وفي التاسعة بصيغة الماضي «طبع» وهذا تلميح الى أنَّ الطبع نتيجة سوء أعمالهم وتصرفاتهم.

يقول بعض المفسرين : إن المراد من « الطبع » في مثل هذه الآيات هو نفس السبك والنقش الذي يستخدم للدراهم والمسكوكات، وهو نقش ثابت

وباق، لا يتغير بسهولة(١)، فانَّ نَقْشَ الكفر والنفاق والاثم نُقِشَ على قلوبهم فلا يمحى بسهولة.

* * *

وتحدثت الآية العاشرة والحادية عشرة عن «الختم» وكما قلنا سابقاً في شرح المفردات: إن الختم يعني الانتهاء والفراغ من شيء، وبما أن الرسائل تختم عند الفراغ منها استعملت هذه المفردة هناك ايضاً، وختم الشيء قفله وشده بحيث لا يمكن لأحد فتحه، والمراد من الختم على القلوب والأسماع والابصار في الآيات، هو سلب قدرتها عن التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر وذلك بسبب أعمال أصحابها وتصرفاتهم، ولهذا يذكر القرآن في الآية السابقة: (اِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ ءأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) (البقرة / ٦).

المسلم به هو ان هذا الخطاب لا يعم الكافرين كلهم بل يخص المتعصبين والمعاندين منهم، أي اولئك الذين عرقوا بذنوبهم الى درجة حيث أصبحت قلوبهم ظلماء، والاّ فالنبي أُرسل مبشراً ومنذراً للكافرين والمنحرفين.

والـــجدير ذكره هنا هو أن الآيات تحدثت عـــن الختم على الابصار والسمع كما تحدثت عن الختم على القلوب، وهذا تلميح منها الى أن السمع والبصر قد يتعطلان، أي قد يتعطل الادراك الحسي كما يتعطل العقلي، وكما تعلم ان أغلب العلوم البشرية تحصل بواسطة هذين الحسين، وحتى حقانية الوحي ودعوة الانبياء تكتشف بهما، ومع تعطلهما فان طرق الهداية والنجاه ستغلق أمامهم، وهذا من سوء أعمالهم بأنفسهم، ولا يستلزم جبراً كما يدعيه بعض الظانين.

وقد جاء هذا التعبير في مجال الطبع كذلك، حيث يقول تعالى في الآية (١٠٨)

---

١ – تفسير المنار الجزء ٩ الصفحة ٣٣.

من سورة النحل: (أُولئِكَ الَّذِينَ طَبعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ).

والآية التي سبقت الاخير أشارت الى أن هذا الامر ليس عاماً وشاملا لجميع الكفار، بل يختص بمن شُرِح صدره لكفر، حيث يقول في الآية (١٠٦) من نفس السورة: (وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً).

* * *

وقد تحدثت الآية الثانية عشرة عن أقفال القلوب التي قد تكون أشد من الختم(١)، حيث قالت:

(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوب أَقْفالُها) أي أن آيات القرآن تنفذ في القلوب ولو من نوافذ صغيرة، وذلك لأن منطق القرآن هو البيان البديع، والبلاغة في التعبير، والعمق والدقة في التحليل، وهو نور وضياء خاص ينفذ في قلب كل مؤهل ولو بأقلِّ تأهيل، ويستحوذ على القلوب ويهز الضمائر، رغم هذا فانه لا ينفذ في قلوب هؤلاء ولا يهز ضمائرهم أبداً، وذلك لانغلاق قلوبهم.

إن «أقفال» جمع «قفل» ومن مادة «قُفول» ويعني الرجوع، وبما أن كلَّ من أتى باباً مقفوله رجع استعملت هذه المفردة في هذا المجال.

إنَّ التعبير بـــ « الاقفال » قد يكون اشارة الـــى تعدد أقفال القلب بحيث اذا ما فتح قفل بقيت اقفال اخرى، وهذه في الحقيقة أسوء مرحلة وأشدها من مراحل حرمان ادراك الحقائق.

ويلاحظ هنا عدم اضافة «قلوب» الى الاقفال بل جاءت بصيغة النكرة، وكأن هذا إشارة الى أن هذه القلوب ليست لهم، والأعجب من هذا هو اضافة «الأقفال» الى «القلوب» وكأنّ قلوبهم أهل للاقفال فقط لا لشيء آخر.

---

١ – وقد أشار الفخر الرازي في تفسيره الى هذا الأمر.

* * *

وفي الآية الثالثة عشرة تعبير يهز الضمائر حيث يقول تعالى: (إِنَّها لا تَعَمَى الأَبْصارُ وَلْكَنْ تَعَمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (الحج / ٤٦)، أي ان الحاسة الباصرة اذا فقدت فهذا ليس بعمى، لإمكان أن يسد العقل اليقظ فراغها، وانما الشقاء والبؤس والتعاسة في القلوب اذا عميت، فعمي القلوب أكبر حاجب عن إدراك الحقيقة، والانسان بنفسه يعمي قلبه، ولقد أثبتت التجربة ان الانسان إذا ما جعل عصابة على عينيه أو مكث في ظلام لمدة طويلة، فان سيفقد باصرته تدريجياً، كذلك الأمر بالنسبة للذين يغمضون عيون قلوبهم عن الحقائق، أو يمكثون مدة طويلة في ظلمات الجهل والغرور والإثم فان قلوبهم ستعمى، وتكون غير قادرة على إدراك أي حقيقة.

يُشكِكُ البعض أنه لا يمكن أن يراد من القلب (الذي في الصدر ويضخ الدم الى جميع أعضاء البدن) العقل والروح.

إلاّ أنه بملاحظة استعمال « الـــصدر » بمعنى الـــذات والفطرة يتضح لـــنا أن المراد من (القلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) هو الادراك العقلي المودع في طبيعة الانسان.

إضافة الى هذا، فان القلب أول عضو في بدن الانسان يتأثر بعواطف وأحاسيس وادراكات

الانسان، نلاحظ ان اتخاذ قرار مهم ، أو حصول حالة غضب شديدة ، أو الاحساس بالحب القوي تجاه شخص ما يُزيد من دقات القلب ، فإذا استعمل القلب الظاهري كناية عن العقل ، فلأجل العلاقة الوثيقة التي بينه وبين الروح(١).

---

١ – للمزيد من العلم راجع (التفسير الأمثل) الجزء ١ ذيل الآية ٧ من سورة البقرة والجزء ١٤ صفحة ١٣١.

* * *

وقد تحدثت الآية الرابعة عشرة والاخيرة عن آخر مرحلة لحرمان الانسان من المعرفة، والتي يتعطّل فيها العقل والفطرة والعين والاذن عن العمل بالكامل، فيهوى الانسان الى مستوى الانعام بل أضلّ.

والآية تلميح الى فريق من اهل النار وكانهم خلقوا لأجلها لا لشيء آخر:

(لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُوْنَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالاَنْعامِ بَلْ هُمْ اَضَلُّ اُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ)

وعليه، فانهم فقدوا «هويتهم الانسانية»، وأغلقوا أبواب الرجوع على أنفسهم، فهووا من قمم السعادة السماوية المعدة لهم الى شقاء جهنم التي أُعدت لأولئك الذين غلقوا جميع أبواب المعرفة على أنفسهم، وهو مصير صنعتهُ نفوسهم وذنوبهم وعصيانهم.

* * *

النتيجة الأخيرة:

إن في القرآن الكريم نماذجاً كثيرة تشبه الآيات الاربعة عشرة التي ذكرناها في أول هذا الفصل، وانتخبنا هذه الاربعة عشرة للمواصفات التي تتحلى بها، وقد انتهينا الى حقيقة واضحة وهي أنه قد تعرض آفات لمصادر المعرفة بالخصوص العقل والفطرة والحس، وبعض تلك الآفات خفيفة طفيفة، وبعضها شديدة، وبعضها بدرجة من الشدة حيث تترك الانسان في ظلمات مطلقة تمنعه من استيعاب أوضح الحقائق الحسية.

وقد سعينا لمتابعة هذا الانحراف التدريجي لجميع مراحله مع الاستشهاد

بآيات القرآن، ولا ندعي أن الترتيب الطبيعي لهذا الانحراف هو نفس الترتيب الذي جاء في الآيات عيناً، بل نقول: إن الآيات المذكورة قد بيّنت نفوذ الآفات في جميع.

وما أجمل تعبير القرآن في هــذا المجال ، ومــا أدقه ؟ فتارة تحدث عن العوامل الخارجية مثل « تزيين الشيطان » وتــارة تحدث عن انحراف القلب والفكر.

وتارة عن صدأ القلوب.

وتارة عن تحول هذا الانحراف الى مرض مزمن.

وتارة عن الأكنة المجعولة على القلوب.

وتارة عن تغلُّف القلوب بالكامل.

وتارة عن الطبع على القلوب والنقش عليها.

وتارة عن وضع القلوب في أوعية وختم تلك الأوعية.

وتارة عن تجاوز الأكنة القلوب لتشمل السمع والبصر.

وتارة عن تقفل القلوب.

وتارة عن العمى الكامل.

وأخيراً عن سلب الانسان هويته الانسانية وإسقاطه الى درجة الأنعام بل درجة أدنى منها.

أما دواعي هذه المآسي والمصائب؟ فهو ما نتناوله في بحثنا اللاحق، لأن الهدف من بحثنا الماضي كان التعريف بالآفات والحجب وتوضيح أمرها بصورة اجمالية.

ثم نصل الى مرحلة علاج هذه الأمرض وكيفية رفع الأكنة ومسح الصدأ والرين والوقاية من الوصول الى مرحلة لا خروج منها.

وننهي بحثنا هذا بحديث عن الامام الصادق(عليه السلام):

[٢٨٢]

«إنّ لك قلباً ومسامع وإن الله إذا أراد أن يهدي عبداً فتح مسامع قلبه، وإذ أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه فلا يصلح أبداً وهو قول الله عزَّوجلَّ (عَلَى قُلُوب أَقْفالُها)(١).

* * *

---

١ – تفسير نور الثقلين الجزء ٥ الصفحة ٤١.

[٢٨٣]

[٢٨٤]

حُجُب المعرفة وآفاتها

«بالتفصيل»

[٢٨٥]

[٢٨٦]

تمهيد:

كان الحديث في البحث السابق عن انسداد أبواب المعرفة وطرقها بالاجمال.

وحديثنا الآن عن «العلل والعوامل» لهذه الظاهرة المؤلمة التيى يمكنها أن تؤدي بالانسان الى السقوط الى درجة الأنعام والبهائم.

حديثنا عن الامور التي تسبب ظهور الصدأ على قلب الانسان، وجعل الوقرفي الاذان، والعمى في القلب، واختلال توازن العقل، واخيراً تسبب عدم رؤية الحق او رؤيته معكوساً!

تابع القرآن هذه المس.لة المهمة في آيات عديدة وبيّن العلل الأساسية لهذه الظاهرة، ويمكن تلخيص العلل في ثلاثة أقسام:

١ ــ الصفات والاخلاقيات التي يمكنها أن تكون حاجباً عن الرؤية الروحية.

٢ ــ الأعمال والسلوك التي تسوّد مرآة العقل.

٣ ــ العوامل الخارجية التي تؤثر على فكر الانسان وعقله وعواطفه وفطرته.

وسنبحث هذه العناوين الثلاثة كلا على حده (وأؤكد هنا على أننا نطرح العلل التي انعكست في القرآن الكريم بوضوح فحسب).

* * *

[٢٨٧]

القسم الأول:

الصفات التي تحول
دون المعرفة

[٢٨٨]

القسم الأول:

الصفات التي تحول دون المعرفة

إن هذه الصفات التي ذكرت في القرآن بصراحة تارة وبالكناية تارة اخرى عبارة عن:

١ ــ حجاب اتخاذ الهوى إلهاً:

قبل كل شيء نصغي خاشعين للآيات التالية:

١ ــ (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشــاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرُون) (الجاثيه / ٢٣)

٢ ــ (كُلَّما جائَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيْقاً يَقْتُلُون وَحَسِبُوا ألاّ تكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تابَ اللهُ عَلَيْهِم ثُمَّ عَمُوْا وَصَمُّوا كَثِيْرٌ مِنْهُمْ وَاللهُ بَصِيْرٌ بِما يَعْمَلُونَ) (المائدة / ٧٠ ــ ٧١)

٣ ــ (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ اِلَيْكَ حَتّى اِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ماذا قالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِيْنَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوائَهُمْ)(محمد / ١٦)

* * *

شرح المفردات

«الهوى» بمعنى رغبة النفس وميلها الى الشهوات ويقال انها مشتقة من «الَهوي» الذي يعني السقوط من الارتفاع، وذلك لأن الهوى يسبب سقوط الانسان في المصائب في الدنيا، وابتلاءه بالعذاب في الاخرة، ومن هنا قيل لجهنم «هاوية» لأن قعرها منحفض للغاية.

وقد ذكر البعض معنيين لهذه المفردة : (الصعود والارتفاع) و(السقوط)، وذكر بعض آخر معنى واحداً لها وهو (الارتفاع والسقوط الى الأسفل) وهذا في الحقيقة تركيب من المعنيين السابقين.

وقال البعض: إن الهُوىّ يعني «السقوط» والهَويّ يعني «الصعود»(١).

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

إتباع الهوى يُعمي القلب:

تحدثت الآية الاولى عن اتخاذ الهوى إلهاً واتباعه، والتضحية لأجله بكل ما يملك، وكل من كان كذلك فسوف يختم على قلبه وعلى سمعه ويجعل على بصره غشاوة، فلا يهتدي بعد ذلك، فلنقرأ الآية: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْم ...).

*** * ***

---

١ - راجع مفردات الراغب، ومجمع البحرين، وكتاب العين، واقرب الموارد، والمنجد.

والآية الثانية تحدثت عن فريق من اليهود المعاندين حيث كلما جاءتهم رُسُل الله وأتوا بما يخالف أهواهم، قاموا بتكذيب بعضهم وقتل البعض الآخر، إن عنادهم هذا جعل حجاباً بينهم وبين الحقائق، فيرون أنفسهم آمنين من عذاب الله، تاب الله عليهم، وشملتهم رحمته الواسعة في المرة الاولى، لكن في المرة الثانية شملتهم نقمته، وذلك لنقضهم عهدهم وطغيانهم، فعموا وصُمّوا.

وهذه من المردودات السلبية لاتباع الهوى، حيث يهرقون دماء الانبياء ولا يدركون قبح عملهم.

إن التعبير بـــ «يقتلون» يدل على أن ديدن هذا الفريق من اليهود هو قتل الأنبياء لما يأتون به من الشرائع المخالفة لأهوائهم.

*** * ***

والآية الثالثة تشير الى فريق من المنافقين الذين يستمعون للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، وبمجرد ابتعادهم عنه استهزؤا به أمام المؤمنين.

يقول القرآن عن هذا الفريق من المنافقين: (أُولئِكَ الَّذِيْنَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوائِهِم).

إن هذه الآيات الثلاث تبين بوضوح العلاقة بين اتباع الهوى وفقدان قدرة التمييز.

لِمَ لا يكون اتباع الهوى مانعاً عن إدراك الحقيقة وقد استحوذ حبه على جمع جوانب الانسان، فلا يرى شيئاً غيره ولا يفكر إلاّ به؟ وقد سمعنا قول الرسول كثيراً حيث يقول فيه: «حُبُّكَ لُلشَّيء يُعْمِي وَيُصِمُّ»(١).

كما سمعت في هذا المجال حدياً آخر نقل عن الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وعن اميرالمؤمنين: «أمّا اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق»(٢).

---

١ – روضة المتقين الجزء ١٣ الصفحة ٢١.

٢ – البحار الجزء ٧ الصفحة ٧٥، ونهج البلاغة الخطبة ٤٢.

إن هذه المسألة واضحة الى درجة أنها اصبحت مثلا في كلام العرب: «صاحب الحاجة أعمى لا يرى إلاّ حاجته»(١).

إن الانسان الذي خسر قلبه وروحه في حب الجاه والمال والشهوة ، وعبّاً كل رأس مال وجوده في هذا المجال ، لا يرى شيئاً في الدنيا غير هذا الحب ، وقد جعل هذا الحب ستاراً ضخماً على عقله وفكره.

وما أجمال ما قاله علي(عليه السلام) في إحدى خطبه: «مَنْ عشقَ شيئاً أعشى بصره»(٢).

وقد نقلت الرواية التالية في شأن نزول الآية (٢٣) من سورة الجاثية التي أشرنا إليها سابقاً:

انّ ابا جهل طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد ابن المغيرة (فقد كانت الكعبة محترمة في الجاهلية ايضاً ومحلاّ للطواف) فتحدثنا في شأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال ابوجهل والله إني لأعلم انه صادق، فقا له مَهْ، ومالك على ذلك؟ قال، يا ابا عبد شمس كنا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلما تم عقله وكمل رشده نسميه الكذاب الخائن، والله إني لأعلم انه صادق، قال: فما يمنعك ان تصدقه وتؤمن به؟ قال: تتحَدث عني بنات قريش أني اتبعت يتيم ابي طالب من أجل، كسرة، واللات والعزّى إن اتبعته أبدا. فنزلت «وختم على سمعه وقلبه»(٣).

وما أجمل ما قاله علي(عليه السلام) عن الهوى: «آفة العقل الهوى»، كما قال في محل آخر: «الهوى آفة الألباب»(٤).

* * *

---

١ – نهج البلاغة الخطبة ١٠٩.

٢ – تفسير المراغي الجزء ٥ الصفحة ١٥٧.

٣ – تفسير المراغي الجزء ٢٥ الصفحة ١٥٧.

٤ – غرر الحكم.

[٢٩٢]

٢ ــ حجاب حب الدنيا

يقول القرآن في هذا المجال:
(ذلِكَ بِأَنَّهُم اسْتَحَبّوا الْحِياةَ الدُّنْيا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِيْنَ * أُولئِكَ الَّذِيْنَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ) النحل / ١٠٧ ــ ١٠٨)

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

إن الآية تشير الى قوم أسلموا رغبة في الاسلام ، ثم ارتدوا عنه ، فلمحت الآية الى أن ارتدادهم لم يكن لرؤيتهم في الاسلام ما يخالف الحق ، بل لأنهم استحبوا الدنيا على الاخرة ، ورجحوها عليها ، فودعوا الاسلام واتجهوا نحو وادي الكفر تارة اخرى، ولم يرَ الله فيهم الأهلية للهداية مرة اخرى، وذلك لحبهم للحياة الدنيا، فطبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأغلق عليهم أبواب المعرفة فأصبحوا من الغافلين.
إن حب الدنيا سواء كان في غطاء حب المال والثروة أو في غطاء حب الجاه والمقام، أو في غطاء حب الشهوات المختلفة، كالريح العاصف للذي يهب في باطن الانسان فيفقده توازن عقله بالكامل.
نعلم ان الميزان الدقيق يُجعل في محفظة تحول دون تأثير النسيم عليه، وحتى الوزّان ينبغي له حبس أنفاسه حتى الانتهاء من الوزن، وذلك للحيلولة دون تأثير امواج الهواء الخارج من رئته على تعادل الميزان، فما فائدة ميزان كهذا عند

[٢٩٣]

هبوب ريح عاصف؟
إن حب الدنيا سواء كانت بشكلها القاروني أو الفرعوني أو السامري أو غير ذلك، لا يسمح لفكر الانسان أن يحكم على الامور صحيحاً، واذا صرح الله تعالى في الآية السابقة بانه طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، فلذلك مردود حب الدنيا الطبيعي، وبما أنهم يتجهون نحو السبب فيبتلون بالمسبَّب.
ويشاهد في الأحاديث الاسلامية تعابير جميلة في هذا المجال، يقول الامام الباقر(عليه السلام).
«مثلُ الحريص على الدنيا كمثل دودة القز كلما ازدادت من القز على نفسها كان أبعد لها من

الخروج حتى تموت غماً»(١).
كما نُقل حديث آخر عن امير المؤمنين(عليه السلام) يقول فيه: «الدنيا تفرّ وتضرّ وتمرّ»(٢).
ويقول الامام نفسه في رسالته كتبها لأحد أصحابه ينصحه فيها ويقول: «فارفض الدنيا فانّ حب الدنيا يُمر، ويُصم ويبكم ويُذلُّ الرِّقاب فتدارك ما بقي من عمرك ولا تقل غداً أوْ بعد غد فانّما هلك من كان قبلك باقامتهم على الأماني والتسويف»(٣).
* * *

٣ ــ حجاب الكبر والغرور وسكرة القدرة!

---

١ – البحار الجزء ٧ الصفحة ٢٣ الحديث ١٣.
٢ – نهج البلاغة.
٣ – البحار الجزء ٧٠ الصفحة ٧٥، اصول الكافي الجزء ٢ باب ذم الدنيا والزهد فيها الحديث ٢٣.

١ ــ (الَّذِيْنَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطان آتاهُمْ كَبُرَ مَقَتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِيْنَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّر جَبّارِ).
٢ ــ (وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُه أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِيْنَ آمَنُوا هُدَى وَشِفاءٌ وَالَّذِيْنَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكان بَعِيْد).
* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

الجبارون والمعرورون لا يدركون الحق!

تحدثت الآية الاولى عن «مؤمن آل فرعون» صاحب الضمير الحي الذي كان في بلاط فرعون يؤ د موسى بن عمران ويؤمن به سراً، فصرحت الآية: (الَّذِيْنَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطان آتاهُمْ كَبُرَ مَقَتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِيْنَ آمَنوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّر).
نعم، إن عناد الحق والاصرار في ذلك العناد يجعل حجاباً على فكر الانسان ويسلبه حسن معرفته، فيبلغ به الأمر الى أن يصبح قلبه كالوعاء المغلق لا يخرج محتواه الفاسد ولا ينفذ فيه المحتوى السليم والمفيد.

يقول البعض في الفرق بين «البجار» و«المتكبر» ان «التكبر» يقابل «الخضوع للحق» و«الجبروت» يقابل «الشفقه والمحبة للخلق»، فالظَّلَمَة المغرورون لا يخضعون للحق ولا يرحمون الخلق.

[٢٩٥]

* * *

والآية الثانية نقلت أقوال فريق من المتكبرين المعاندين حول القرآن حيث كانوا يقولون: لِمَ لَمْ ينزّل القرآن أعجمياً كي نهتم به أكثر وكي يفهمه غير العرب؟ (قد يكون مرادهم هو الحؤول دون فهم الناس له).

فأجابهم القرآن: لو نزّل القرآن أعجمياً لأشكلتم إشكالا آخر وهو «لولا فصلت آياته» أي ان محتوام معقد ومبهم ولا نعي شيئاً منه، ثم قلتم، عجيب أن يكون القرآن أعجمياً ونازلا على عربي؟!

ثم أمر الله الرسول ب.ن يقول لأولئك المغرورين:

(هُوَ لِلَّذِيْنَ آمَنُوا هُدَى وَشِفاءٌ وَالَّذِيْنَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذنِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكان بَعِيْد)

وواضح ان الذي ينادى من مكان بعيد لا يسمع ولا يُرى.

إذا أنكرت أعينهم نور شمس القرآن الساطعة فذلك لرمدها، واذا أنكرت آذانهم نداء الحق المدوّي فلذلك للوقر الذي فيها.

حجاب الغرور في الأحاديث الإسلامية:

١ ــ جاء في حديث للامام الباقر(عليه السلام): «ما دخل قلب امرىء شيء من الكبر إلاّ نقص من عقله ما دخله من ذلك قلَّ ذلك أكثر»(١).

٢ ــ وقد خاطب امير المؤمنين(عليه السلام) فريقاً من المنحرفين في كلماته القصار قائلا: «بينكم وبين الموعظة حجاب من العزّة»(٢).

عندما يتمحور حب الذات في نفس الانسان، يسعى الانسان لأن يجمع كل شيء في نفسه، وعندما يصل الى مستوى «العجب» يرى نفسه أعلى وأرفع من أي

---

١ – البحار الجزء ٧٥ الصفحة ١٨٦ باب وصايا الامام الباقر(عليه السلام) الحديث ٢٦.

٢ – نهج البلاغة: الكلمات القصار رقم ٢٠٠٨٢.

انسان آخر، وعندما يصل الى مستوى «الانانية» يرى نفسه المقياس الوحيد للقيم والجمال.

وهذه الحالات تجعل ستار عجيب على عقله تحجب الحقيقة عنه، فيرى جميع القيم منحسره في نفسه، وينسى غيره.

ولهذا، فان أول خطوة في مجال تهذيب النفس هو الترفع عن «الكبر والغرور»، ولا يتأهل الانسان للقرب من الله من دون ذلك.

٣ ــ وقد جاء في كلام لأمير المؤمنين(عليه السلام) : « سرّ آفات العقل الكبر »(١)، كما جاء في كلام آخر له: «العجب آفة»(٢).

* * *

٤ ــ حجاب الجهل والغفلة

١ ــ (كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِيْنَ لا يَعْلَمُونَ)

(الروم / ٥٩)

٢ ــ (لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آبائُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ * وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيْهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ * وَسواءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

(يس / ٦ / و ٩ و ١٠)

* * *

---

١ – غرر الحكم.

٢ – غرر الحكم.

جمع الآيات وتفسيرها:

أكدت الآية الأولى على أن الله ضرب للناس في هذا القرآن من كلِّ مثل ، فتارة بآيات الآفاق والأنفس وتارة بالوعد والوعيد، وتارة بالأمر والنهي، وتارة بالبشرى والانذار، وتارة بالسبل العاطفية والفطرية، وتارة بالاستدلال، ورغم هذا البيان فان فريقاً من الجاهلين والغافلين يجحدون بآيات الله ويقولون: أنتم مبطلون أي على باطل. ويضيف الله في الآية: هذا كله لأجل أن الله طبع على قلوبهم وذلك يجهلهم.

إن الآية ــ في الحقيقة ــ تشير الى أسوأ أنواع الجهل وهو «الجهل المركب» الجهل الذي يحسبه صاحبه علماً، ولا يصغي لمن أراد ايقاظه من غفلة الجهل هذه، ولهذا فان شخصاً كهذا

يضلُّ جاهاً جهلا مركباً الى أبد الدهر.
اذا كان اخطاب موجهاً لجاهل «جهلا بسيطاً» أي لا يعلم ويعلم أنه لا يعلم، ومستعد في نفس الوقت لقبول نداء الحق والهداية، فان الأمر اتجاهه بسيط، والحجاب المانع يطبع على القلب عندما يكون الجهل مركباً وممتزجاً بروح العناد وعدم التسليم لنداء الحق.
وقد نقل في بعض التفاسير شعر جميل لشاعر عربي يقول فيه:
قال حمار الحكيم يوماً ***** لو تنصفوني لكنتُ أركب
لأنّني جاهل بسيط ***** وصاحبي جاهل مركب(١)
* * *
وتشير الآية الثانية الى فريق من الغافلين الذين صدر حكم العذاب بحقهم وذلك لجهلهم وعنادهم وأنّهم ليسوا أهلا للهداية.

---

١ – روح المعاني الجزء ٢١ الصفحة ٥٥ ذيل الآية ٥٩ من سورة الروم.

ثم صوّر القرآن الحُجُب التي قد تحيط العقل تصويراً عجيباً حيث قال: (إنَّا جَعَلْنا فِي أعْناقِهِم أغْلالا فَهيَ اِلى الاذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنا مِنْ بَينِ أَيدِيهِم سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأغْشَيْناهُم فَهُمْ لا يُبْصِرُون).
إنَ عبارة (وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم سَداً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً) إشارة الى الحجب التي تحول دون رؤية آيات الافاق والكون.
إن الأغلال التي جاءت في الآية قد تكون اشارة الى الحجب التي تحول دون رؤية آيات الأنفس، والأسوأ من هذا كله هو جعل الغشاوة على الابصار بحيث لا امكان للرؤية، وهي ستار الغفلة والجهل والغرور.
وبديهي أن أشخاصاً كهؤلاء مع كل هذه الحجب ، سواء أنذرهم الرسول أم لم ينذرهم وسواء سمعوا آيات القرآن من شفاه محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) الطاهرة أم لم يسمعوا ، فهُم لا يؤمنون ولا يهتدون ، إنهم رهائن لا لغل واحد، بل لأغلال عديدة (فالأغلال جاء بصيغة الجمع لا المفرد). وقد فسر البعض السد (الذي يجعل امام الشخص) بالحجب التي تحرم الانسان من الهداية النظرية والاستدلال، والسد (الذي يجعل من الخلق) بالحجب التي تمنع من الهداية الفطرية والرجوع
إليها(١).
* * *

حجاب الجهل في الأحاديث الاسلامية:

١ ــ قال الامــام امير المــؤمنين(عليه السلام) عن الجهــل : « الجــاهل مــيت بــين الأحياء »(٢).

---

١ – تفسير الفخر الرازي الجزء ٢٦ الصفحة ٤٥ ذيل الآيات المذكورة في بحثنا.
٢ – غرر الحكم الصفحة ٩٩.

٢ ــ كما قال في محل آخر: «الحمق من ثمار الجهل»(١).
واضح، كما ان الميت فاقد الادراك والاحساس كذا الجاهل العنود، لا نتوقع منه الفهم الحقيقي للامور.
٣ ــ من خصائص الجاهلين بالجهل المركب أنهم يعدون العلماء الحقيقيين ضالين، ولهذا جاء في حديث الامام موسى بن جعفر(عليه السلام): «تعجب الجاهل من العاقل أكثر من تعجب العاقل من الجاهل»(٢).
٤ ــ ننهي البحث بحديث للامام امــير المــؤمنين(عليه السلام) حيث يقول فيه : « إن قلوب الجُهّال تستفزها الأطماع وترتهنها المُنى وتستعقلها الخدايع»(٣).
* * *

٥ ــ حجاب النفاق

١ ــ (يُخادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمــا يَخْدَعــُونَ اِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَمــا يَشْعُــرُونَ * فِي قُلُــوبِهِمْ مَــرَضٌ فَزادَهُمُ اللهُ مَــرَضاً وَلَهُمْ عَــذابٌ أَليمٌ بِــمــا كانُــوا يَكْذِبُــونَ)
(البقرة / ٩ ــ ١٠)
٢ ــ (مَثَلُــهُمْ كَــمَثَلِ الَّــذِي اسْتَوْقَدَ نــاراً فَلَمّا أَضــاءَتْ مــا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُــورِهِمْ وَتَرَكَــهُمْ فــي ظُلُمــات لا يُبْصِــرُونَ * صُمٌّ بُكْــمٌ عُمْــيٌ فَهُــمْ لا يَرْجِعُونَ)
(البقرة / ١٧ ــ ١٨)

---

١ – نفس المصدر الصفحة ٤١.

٢ – سفينة البحار الجزء ١ الصفحة ١٩٩.
٣ – الكافي الجزء ١ الصفحة ٢٣ كتاب العقل والجهل الحديث ١٨.

[٣٠٠]

٣ ــ (إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِيْنَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هــؤُلاء دِيْنُهُــمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيْزٌ حَكِيمٌ)
(الانفال / ٤٩)
٤ ــ (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَــافِقُونَ وَالَّذِيْنَ فِــي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مــا وَعَــدَنا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاّ غُرُورا)
(الاحزاب / ١٢)
* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

المنافقون عمي القلوب:
إنّ في أوائل سورة البقرة ثلاث عشرة آية تحدثت عن النفاق والمنافقين، وقد صورتهما بدقة متناهية وبتعابير وافية، والآية الاولى هي من ضمن الآيات التي جاءت هناك.
يقول القرآن في هذه الآية: إن احد أخطاء المنافقين أنهم يخادعون الله وكذا المؤمنين، وفي الحقيقة لا يخادعون إلاّ أنفسهم وهم لا يشعرون ولا يعلمون، وذلك لأن النفاق قد غطّى قلوبهم بستاره السميك، ثم يضيف القرآن: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً).
من الــواضح، إن المــراد من المــرض في الآية هــو « مرض النفاق » الذي يتغلب على قلوبهم، فالانــسان المــريض لا يستطيع ان يفكر تفكير سليماً (لأن العقل السليم في الجسم السليم)، وكذلك حواسه الظاهرية، ولهذا نرى بعض المــرضى تــبدو ألــذ الاغــذية عنــدهم كــريــهة الطــعم، وبــعض الأغذية
كــريهة الطعم لذيذة.

[٣٠١]

* * *

وقد شبهت الآية الثانية المنافقين بالذي ضلَّ متورطاً في ظلمات الليل، ثم استوقد ناراً ليرى مما حوله، فجاء ريح عاصف وأطفأ ما استوقده فبقي في الظلمات تارة اخرى، فلا يبصر ولا يسمع ولا ينطق شسيئاً، ولا طريق له للرجوع.
قد يكون المراد من النور الذي جاء في الآية هو نور الايمان الظاهري الذي يراه المنافق

ويستضيء به ما حوله ويحفظ نفسه وماله تحت ظله.
أو أن المراد منه هو نــور الفطرة الذي جُبل عليه الانسان، والمنافقون يستثمرون هذا النور في البداية، ولا يمضي زمن طويل حتى تأتي زوبعة النفاق فتطفئه.

* * *

تحدثت الآيــة الثالثة والــرابعة عن المــنافقين مرضى القلــوب، وبقرينة الآيات السابقة ندرك أن المراد من «الذين في قلوبهم مرض» هو نفس المنافقين وان العطف عطف تفسيري(١)، إلاّ أن الآية الثالثة تحدثت عن موقفهم في معركة بــدر، والــرابعة عن موقفهم في معركة الاحزاب، والفرق هو انهم كانوا في «بدر» في صفوف المشركين لان المشركين يوم ذاك كانوا القوة الراجحة، وفي معركة الاحزاب كانوا مع المسلمين.
كانوا يقولون: «اغترَّ هؤلاء المسلمون بدينهم، وقد خطوا هذه الخطوة الخطيرة

---

١ – لقد جاء في تفسير الميزان الصفحة ١٦٤ و ٣٠٢، وكذلك تفسير الفخر الرازي الجزء ١٥ الصفحة ١٧٦: إن المراد من الذين في قلوبهم مرض هو ضعف الايمان وهم غير المنافقين. لكن لا يتناسب ضعف الايمان مع المرض في القلب، إضافة الى أن الآيات الثلاثة عشرة التي جاءت في اوائل سورة البقرة استعملت هذا التعبير في حقهم. كما يبدو بُعد الرأي الذي يفسر المرض بالترديد والشك، لان المرض نوع من الانحراف، بينما الشك نوع من الفقدان.

(الجهاد) رغم قلة العدّة والعدد ظناً منهم بالنصر، أو بالشهادة التي مصيرها الموت»!
بالطبع، إنهم غير قادرين ــ بسبب المرض للذي في قلوبهم ــ على الادراك الصحيح لعوامل النصر الحقيقة أي الايمان والثبات والفتوة التي هي وليدة الايمان فما كانوا يدركون أن من يتوكّل على الله القادر فهو حسبه وهو ناصره، والشاهد على هذا الحديث هو ما حصل في صدر الاسلام، حيث ان بعض المسلمين رفض الهجرة الى المدينة، والعجيب في الأمر أن قريشاً عندما تحركوا نحو بدر لقتال المسلمين، اصطف هؤلاء المسلمون (المنافقون) في صفوفهم، وكانوا يحدثون أنفسهم أنهم سيلتحقون بجيش محمد اذا كان جيشه ذا عدد كبير، وسيبقون مع جيش قريش اذا ما كان عدد المسلمين قليلا(١).
وهل للنفاق مفهوم غير هذا الذي تجسد في هذه المجموعة؟ وإذا لم يكونوا منافقين، فمن هم المنافقون؟
وقد حصل هذا الأمر بالذات في معركة الأحزاب فان شخصيات كثيرة من المنافقين كانت قد

حشرت نفسها مع المسلمين، وعندما شاهدوا كثرة الاحزاب قالوا بصراحة: ما وعدنا الرسول إلاّ كذباً وباطلا.
وهذا هو حجاب النفاق الذي لا يسمح لهم من إدراك الحقائق، رغم أنهم شاهدوا بأم أعينهم أن النصر ليس بكثرة العدد، بل بالايمان والثبات الناشيء عنه.

سؤال:

يطرح سؤال هنا وهو: كيف يكون النفاق حجاباً يجب عن الحقائق؟
* * *

---

١ - تفسير الفخر الرازي الجزء ١٥ الصفحة ١٧٦ ذيل الآية ٤٩ من سورة الانفال.

الجواب:

يمكننا الاجابة على هذا السؤال بالالتفات الى ملاحظة في هذا المجال وهي: إن روح النفاق تستلزم أن يتحرك الانسان مع كل التيارات وأن يكون مع جميع الفرق، وأن يتخذ صبغة المحيط الذي يعيش فيه، فيفقد في النهاية اصالته واستقلاله الفكري، إن طريقة تفكير انسان كهذا تكون متطابقة دائماً مع طريقة تفكير الفريق الذي يكون معهم، فلا عجب أن يكون حكمه غير صحيح.
وقد جاء في بعض التفاسير: إن التعبير بـ «في قلوبهم مرض» يصدق في موارد كهذه الموارد، من حيث ان غاية القلب (العقل) الخاص هو معرفة الله وعبوديته، وكل صفة منعت وحجبت عن غاية القلب هذه، قيل لها مرض (لانها تحجب الهدف وتمنعه من الظهور)(١).
ولهذا جاء في سورة المنافقين الآية ٧: (وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِيْنَ لا يَفْقَهُونَ).
كما قد جاء في حديث الامام الباقر(عليه السلام): «إن القلوب أربعة: قلب فيه نفاق وايمان وقلب منكوس وقلب مطبوع وقلب أزهر أجرد» فقلت ما الأزهر؟ قال: «فيه كهيئة السِّراج، فأما المطبوع فقلب المنافق، وأما الأزهر فقلب المؤمن إن أعطاه شكر وان ابتلاه صَبَر، وأما المنكوس فقلب المشرك»(٢).
وننهي حديثنا هذا بكلام للامام امير المؤمنين(عليه السلام):
«النفاق على أربع دعائم على الهوى والهوينا والحفيضة والطمع»(٣).

ونعلم أن كلا من هذه الامور الأربع تشكل حجاباً سميكاً أمام نظر العقل.

* * *

---

١ – تفسير الفخر الرازي الجزء ٢ الصفحة ٦٤ ذيل الآية ١٠ من سورة البقرة.

٢ – اصول الكافي الجزء ٢ الصفحة ٤٤٢ باب «في ظلمة قلب المنافق» حديث ١.

٣ – اصول الكافي الجزء ٢ الصفحة ٣٩٣ باب «صفة المنافق والنفاق».

٦ ــ حجاب التعصب والعناد

١ ــ (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ اِلَيْكَ وَجَعَلْنا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَاِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَة لا يُؤْمِنُوا بِهــا حَتّى اِذا جائُوكَ يُجادِلُوكَ يَقُولُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا اِنْ هذا اِلاّ أَساطِيْرُ الأَوَّلِيْنَ) (الانعام / ٢٥)

٢ ــ (وَاِذا قَــرَأْتَ الْقُــرْآنَ جَعَلْنــا بَيْنَــكَ وَبَيْــنَ الَّــذِينَ لا يُــؤْمِنُــوْنَ بِالآخِرَةِ حِجــاباً مَسْتُوراً * وَجَــعَلنــا عَلى قُلُــوبِهِــمْ أَكِــنَّةً اَنْ يَفْقَهُــوهُ وَفِــي آذانِهِمْ وَقْــراً وَاِذا ذَكَــرْتَ رَبَّــكَ فِــي الْقُــرآنِ وَحْــدَهُ وَلَّــوا عَــلَى أَدْبــارِهِــمْ نُــفُورا) (الاسراء / ٤٥ ــ ٤٦)

٣ ــ (فَــاِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَــوْتَى وَلا تُسْــمِــعُ الصُــمَ الــدُّعــاءَ اِذا وَلَّــوا مُــدْبِرِيْنَ وَما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَــنْ ضَلالَتِهِــمْ اِن تُسْــمِعُ اِلاَّ مَــنْ يُؤْمِنُ بِــآياتِــنا فَهُمْ مُسْلِمُونْ) (الروم / ٥٢ ــ ٥٣)

٤ ــ (وَلَقَــدْ ضَــرَبنــا لِلنّــاسِ فِــي هَــذا القُرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُــم بِآيَة لَيَقُولَنَّ الَّــذِيــنَ كَفَــروا اِنْ أَنْتُــمْ اِلاَّ مُبْطِلُونَ * كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلــى قُلُــوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) (الروم / ٨٥ ــ ٨٩)

٥ ــ (وَقالوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمّا تَدْعُونا اِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ اِنَّنا عامِلونَ)

(فصلت / ٥)

* * *

تجمع الآيات وتفسيرها:

الموتى المتحركون:

حضر عند رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ابو سفيان والوليد ابن المغيرة والنضر بن الحارث وابو جهل وافراد آخرون واستمعوا الى حديث الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا للنضر ما يقول محمد؟ (وكان النضر تاجراً يسافر الى ايران وله اطّلاع واسع بالاساطير والقصص التاريخية الايرانية) فقال: لا ادري ما يقول لكني اراه يحرك شفتيه ويتكلم باساطير الاولين كالذي كنت احدثكم به عن اخبار القرون الاولى وقال ابوسفيان اني لا ارى بعض ما يقول حقا.

فقال ابوجهل: كلا. فانزل الله تعالى: (ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم اكنه ان يفقهوه)(١).

وقال بعض المفسر تفسير هذه الآية انهم لما أصروا على الكفر وعاندوا وصمموا عليه فصار عدو لهم عن الايمان والحالة هذه كالكنان المانع عن الايمان(٢).

ولهذا نزلت هذه الآية وقالت بصراحة: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ اِلَيْكَ ...).

وقد قال بعض المفسرين في تفسير هذه الآية:

(وَجَعَلْنا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً): إن عناد هؤلاء الكفرة واصرارهم في معاداة الحق،

---

١ - تفسير الفخر الرازي الجزء ١٢ الصفحة ١٨٦.

٢ - تفسير الفخر الرازي الجزء ١٢ الصفحة ١٨٧.

يجعل ستاراً على قلوبهم تحول دون ايمانها(١).

*** * ***

وقد تحدثت الآية الثانية عن الحجاب الذي كان يُجعل بين الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)وبين فريق من المنافقين عندما كان يتلو القرآن الكريم.

وقد فسر البعض هذا الحجاب بستار حقيقي كان يجعله الله بين الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وبينهم بحيث لا يرونه، إلاّ انه مع الالتفات الى الآيات التي لحقت هذه الآية من نفس السورة، يتضح لنا أن الحجاب لم يكن سوى «حجاب التعصب والعناد والغرور والجهل» الذي كتم حقائق القرآن عن عقولهم وادراكهم.

والشاهد على ذلك هو قوله تعالى: (وَاذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرآنِ وَحْدَهُ وَلَّوا عَلَى أَدْبارِهِمْ نُفُورا) فالمستفاد من هذا التعبير هو أنهم كانوا يصغون في البداية الى حديث الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) ثم يولون مدبرين لعدم سماح العناد لهم لادراك القرآن، وادراك حديث التوحيد.

ونشاهد في نفس السورة تعابيرات اخرى تحـــكي روح العنـــاد المنجسمة فيهم، ومع هذا، فهل يمكنهم إدراك حقيقة ما؟

* * *

وخـــاطبت الآية الثـــالثة الرســـول(صلى الله عليه وآله وسلم) قائلة له: إنـــك لا تُسمع الموتى ولا الصم عندما يولـــون مدبرين، كما أنـــك لا تستطيع هدايـــة العمى وانقاذه من

---

١ – نفس المصدر السابق الصفحة ١٨٧.

الهلاك، فما يسمع كلامك إلاّ الذين آمنوا بآيات الله وسلموا للحق (أي الذين تتلهف قلوبهم تلهف للـــحق، فان قلوباً كهذه كالأرض المعدَّه للزرع، تسطع عليها الشمس، وتقطر السماء عليهـــا قطرات الحيـــاة، فتنمو فيها البذور بسرعة، وأما القلوب التي عطّلتها حُجب التعصب والجهل فانها محرومة من هذه الحقائق)(١).

* * *

والآيـــة الـــرابعة تحدثت عن اولئك الكفار الذين وقفوا أمـــام الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)عناداً، وخالفوا كل ما جاء به، فكـــانوا يرمون الرســـول والقرآن بالباطل تارة، وتارة اخرى يقولون: إن ما جاء به الرسول سحر وأساطير الاولين ولا مجال للحق فيه: فتحدث في هذه عن هؤلاء وقال: (كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِيْنَ لا يَعْلَمُونَ). لأنـــهم لا يعلمون شيئـــاً عن هذا الكتـــاب السماوي الذي هو مصدر للحقائق

كما ان الآية توضح العلاقة بين «الجهل» و«العناد».

* * *

وعكست الآية الخامسة النموذج الكامل من العناد، فما قيل الى الآن كان خطاباً بين الله ورسولن، أما هنا فهم يعترفون بأنفسهم بأن على قلوبهم أكنة، وفي آذانهم وقراً، وبينهم وبين رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) حجاب لا يسمح لهم إدراك ما يقول والتسليم له، فاعمل على شاكلتك ونحن عاملون على شاكلتنا.

إن هذه التعابيرات تبين بوضوح مـــا هـــو العـــامل الاساسي لهذه الحجب وما هو السبب الرئيسي للوقر الذي يجعل في الاذن؟ إنهـــا عبارات تمطـــرُ تعصباً

---

١ – وقد جاء في سورة النمل الآية ١١ مضمون يشبه مضمون هذه الآية.

وعناداً وتبين سبب شقائهم وتعاستهم.
كما ان «التعصب» مشتقة من مادة «عصب» وهــو فــي البدن خلايا تسبب اتصال العضلات احداها بالاخرى أو بالعظام، كما هو وسيلة لنقل الايعاز الى المخ، وبما أن لها بنياناً قوياً ومحكماً استعملت هذه المفردة بمعنى الشدة والاستحكام، ويوم عصيب يعني يوم شــديد وصعب، ولهــذا يطــلق «العصب» على حالة الارتباط الشديد بشيء، كما أن «العُصْبة» تعني جماعة من الرجال (المقتدرين) الذين لا يقلون عن عشرة، وأمّا «عَصَبة» فتعني أقارب الرجل من جهة الأب(١).
إن «اللجاجة» هو التمادي في العناد، وملازمة أمر ما وعدم الانصراف عنه، و«اللجّة» تعني حركة أمواج البحر، أو التباس ظلمات الليل، و«البحر اللُجي» هو البحر الواسع والمتلاطم، والتلجلج في الكلام هو التردد فيه، أو اختلاط الاصوات(٢).
* * *

النتيجة:

إن التعصب واللجاجة والعناد تلازم أحدها الآخر، لأن الارتباط الشــديد بشيء يدعو الانسان الى الالحاح والعناد والدفاع عنه بلا حدود.
بالطبع قــد يستــعمل التعصب بــمعنى الارتباط بالحق، إلاّ ان الاستعمــال الغالب له هو الارتباط بالباطل.
إن منشأ الــتعصب واللجاجة والعنــاد ــ بجميع أشــكالها ــ هو الجهل والقصور في الافكار، لأن صاحب التعصب واللجاجة يظن انه اذا تخلى عن عقيدته ورأيه فهذا يعني تخليه عن كلِّ شيء، أو أن هذا إهانة لشخصيته.

---

١ – كتاب العين، والمفردات، ومجمع البيان، ولسان العرب.
٢ – كتاب العين، ومفردات، ومجمع البحرين، ولسان العرب.

وقد يــكون منشأه هو التــكبر والغرور اللذين يمنعانه من الخضوع أمام الحق والتسليم له، وقد يكون منشأه عوامل أخرى.
إن التعصب واللجاجة يجعلان ستــاراً على العقل لا يسمح للانسان أن يرى الحقائق، فإنّا نرى

أشخاصاً غير مستعدين للتخلي عن عقائدهم بأي شكل كان رغم اقامة الأدلة القطعية على بـــطلانها، وإن أشخـــاصاً كهؤلاء لو أقمنا لهم ألف دليل ودليل على أن للدجاج رجلان، قالوا: كلا، بل رجل واحدة! وأخذناهم بأيدينا تحت نور الشمس الساطعة وقلنا لهم: إنه نهار. قالوا: لا بل ليل!

لقد عكست الآيـــات التي ذكرت في بداية البحث هذه الحقيقة بوضوح، واعتبرت هولاء صُمّاً وعمياً وأمواتاً، ومطبوع على قلوبـــهم، أو ان قلوبهم فـــي ملغفة فلا يفقهون شيئاً.

وقد جاء في الروايات الاسلامية مضـــامين تستنـــد الى نفس المضمون الذي جاء في الآيات المذكورة، وفيها توبيخ اللجوجين والمعاندين.

منها قول امير المؤمنين(عليه السلام): «اللجوج لا رأيَ له»(١).

ومنها قوله كذلك: «اَللاّزجُ يُفسد الرأي»(٢).

وكذا قوله: «ليس للجوجِ تدبير»(٣).

وقال الامام (عليه السلام) نفسه في خطبة القاصعة:

«فـــالله الله فـــي كِبْر الحَمية وفخر الجاهلية فإنّه ملاقح الشنان، ومنافخ الشيطان، التي خـــدع بها الامـــم الماضية والقرون الخالية حتى أعنقوا في حنادس جهالته ومهاوي ضلالته»(٤).

ننهي حديثنا بكلام آخر لنفس الامام العظيم، في جواب لـــه علـــى رسائل

---

١ – غرر الحكم.

٢ – غرر الحكم.

٣ – غرر الحكم.

٤ – نهج البلاغة الخطبة ١٩٢.

أهالي مـــدن مختلفة حول حوادث صغيرة: «مَنْ لَـــجّ وتمادى فهو الراكسُ الذي رانَ اللهُ عَلى قلبه وصارت دائرة السوء على رأسه»(١).

بالطبع ــ وكما قلنا سابقاً ــ إن الاصرار والالحاح في الحق ليس تعصباً، وإذا أطلقنا عليه تعصباً فهو «تعصب ممدوح»، ولهذا جاء في حديث للامام علي بن الحسين(عليه السلام) عندما سُئِل عن مفهوم التعصب: «العصبية التي يأثم عليهـــا صاحبهـــا أن يرى الرجلُ شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يُحب الرجلُ قومه ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم»(٢).

* * *

٧ ــ حجاب التقليد الأعمى

نصغي خاشعين أولا للآيات التالية:

١ ــ (قــالُوا سَــواءٌ عَلَيْنــا أَوَعَــظْتَ أَمْ لَمْ تَــكُنْ مِــنَ الْواعِظِيْنَ اِنْ هــذا اِلاَّ خُلُقُ الاْوَّلِــيْنَ » وَمــا نَحْنُ بِمُعَذَّبِيْنَ) (الشعراء / ١٣٦ ــ ١٣٨)

٢ ــ (وَاِذا قِيــلَ لَهُــمْ تَعــالَوا اِلى مــا أَنْــزَلَ اللهُ وَاِلَــى الــرَّسُولِ قــالُوا حَسْبُنــا ما وَجَــدْنا عَلَيْــهِ آبائَنــا أَوَلَوْ كــانَ آبــائُهُمْ لا يَعْلَمُــونَ شَيْئــاً وَلا يَهْتَــدُونَ) (المائدة / ١٠٤)

٣ ــ (وَاِذا فَعَــلُوا فاحِشَةً قــالُوا وَجَــدْنا عَلَيْهــا آبــائَنــا وَاللهُ أَمَــرَنــا بِهــا

---

١ - المصدر السابق الرسالة ٨٥.

٢ - بحار الأنوار الجزء ٧٣ الصفحة ٢٨٨.

قُــلْ اِنَّ اللهَ لا يَأْمُــرُ بِالْفَحْشــاءِ أَتَــقُولُــونَ عَلَــى اللهِ مــا لا تَعْــلَمُــونَ)

(الأعراف / ٢٨)

٤ ــ (وَاِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوْا ما أَنْزَلَ اللهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آبائَنا أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطــانُ يَــدْعُوهُمْ اِلى عَذابِ السَّعِيْرِ)

(لقمان / ٢١)

٥ ــ (وَكَــذلِكَ مــا اَرْسَلْنا مِنْ قَبــلِكَ فِــي قَــرْيَةٍ مِنْ نَــذِيْرٍ اِلاّ قــالَ مُتْرَفُوهــا اِنّا وَجَــدْنا آبــائَنــا عَلــى أُمَّــةٍ وَاِنّــا عَلــى آثــارِهِمْ مُقْتَدُونَ)

(الزخرف / ٢٣)

* * *

شرح المفردات:

رغم انه لم ترد مفردة «التقليد» عيناً في الآيات السابقة بل جاءت مفردة الاقتداء أو الاهتداء أو اتباع ما كان عليه الآباء والاسلاف وامثال هذه المفردات، إلاّ أنه من المستحسن ايضاح مفهوم هذه المفردة جيداً.

إن هذه المفردة مشتقة من مادة «قَلْد»، وتعني في الاصل ــ كما ورد عن الراغب في المفردات ــ فتل الحبل، وقيل للقلادة «قلادة» من حيث ان حبالا كانت تُفتل وتعلق في العنق، «والقلائد» جمع قلادة، استعملها القرآن وأراد بها الانعام التي تُعد للاضحية في مناسك الحج، فانها تُقلَّد لتمييز عن غيرها من الأنعام (الآية الثانية من سورة المائدة)، كما أن اطلاق التقليد على اتباع الآخرين، من حيث أن المقلِّد يجعل كلام المقلَّد كالقلادة في عنقه، أو من حيث أنه يلقي المسؤولية على عاتق المقلَّد.

[٣١٢]

أمّا «مقاليد» ــ وكما يقول كثير من اللغويين ــ فجمع «مقليد» أو «مِقْلد»، إلاّ أن الزمخشري ادعى في كشافه: عدم وجود مفرد لهذه الكلمة.
وأما «مقليد» و «اقليد»، فبمعنى المفتاح، وقد نقل ابن منظور في لسان العرب: إن أصل هذه المفردة هو كلمة «كليد» الفارسية والتي تعني مفتاح كذلك، واستعملت في العربية بنفس المعنى، وتستعمل «مقاليد» بمعنى الخزائن أيضاً، وذلك من حيث انّها تقفل ولا طريق لها إلاّ بالمفتاح.
إذن، لا علاقة بين مفردة «مقاليد» مع مادة «التقليد» و«القلادة»(١).
إلاّ أنه يحتمل رجوع كلا المفردتين الى مادة واحدة من حيث ان كثيراً من الناس يجعلون المفاتيح في فتائل ويقلدون بها أعناقهم(٢).
* * *

شرح الآيات وتفسيرها:

قومٌ أهلكهم تقليدهم:
إن الآية الاولى أشارت الى حديث قوم « عاد » مع رسولهم العطوف «هود»، فعندما دعاهم الى التوحيد وترك الظلم والاجحاف والترف أجابوه: (سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ ...) وبهذا كشفوا عن تحجرهم وصلابتهم تجاه كلام النبي المنطقي، وذلك لعدم سماح حجاب التقليد لهم بقبول الواقعيات.
* * *

وقد كشفت الآية الثانية عن موقاف مشركي العرب عندما كانوا يُـدعون الـى ما أنزل الله، وإلى ترك عبادة الأصنام، وترك البُدَع في تحريم كثير من الامور

---

١ – مفردات الراغب، ومجمع البحرين، ولسان العرب، والبرهان القاطع، وكتب اخرى.
٢ – وقد اعتبر البعض «اقليد» مفردة يمنية أو رومية (مجمع البحرين ولسان العرب ــ مادة قلد ــ).

الحلال، وكان جوابهم آنذاك: (حَسْبُنـا ما وَجَدْنـا عَلَيْهِ آبـائَنـا) فيظنون أنّ وهذا يغنيهم عن القرآن هادياً!!
إلاّ ان القرآن أراد ايقاظهم من غفلتهم هذه وأراد تمزيق حجاب التقليد عندهم فأجابهم: (أَوَلَوْ كانَ آبائُهُم لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُوْنَ) وهل يجوز تقليد الجاهل الضالّ: ؟!
* * *
والآية الثالثة أشارت الى مشركي العرب أيضاً (أو فريق من ذوي الصفات الشيطانية) فانـهم اذا ما سُئِلوا عن سبب اتيـانهم الفاحشة والعمـل القبيـح؟ أجابـوا: (وَجَدْنا عَلَيْها آبائَنا) ولا يكتفـون بهـذا بـل قد يضيقـون: (وَاللهُ أَمَـرَنا بِها).
فينفي القرآن هذه التهمة الكبيرة ويقول: (إنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشـاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ).
يعتقد كثيـر مـن المفسـرين أن المراد مـن «الفحشـاء» في الآيـة الكريمـة هـو طوافهم رجالا ونساءً عراة فـي عصـر الجاهلية، حـيث كانـوا يعتقدون: ان الملابس التي ارتكب بها ذنباً ليست أهلا لأن يُطاف بها حول بيت الله الحرام.
وعلى هذا المنوال، كان ينتقل عملهم القبيح هذا من نسل الى نسل بالتقيد الاعمى، وما كان التقليد يسمح لهم لأن يدركوا قبح هذا الفعل.
* * *
إن رابع وخامس آية أشارتا الى موقف وكلام فريقاً من المشركين في عهد الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) أو العهود التي سبقت عهده تجاه دعوة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أو الانبياء السالفين، خيث كانوا يقولون: (إنّا وَجَدْنا آبائَنا عَلى أُمَّة وَإنّا عَلى آثارِهِمْ

مُقْتَدُونَ).

وهكذا توارثت الأجيال بعد الأجيال الكفر وعبادة الأصنام والآثام والعادات والسنن القبيحة، وقد نسجت روح التقليد حجاباً سميكاً على عقولهم لا يسمح لهم لقبول أي حقيقة، فيقول القرآن عن هؤلاء تارة: (أَوَلَوْ كانَ آبائُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُون). (المائدة / ١٠٤)

ويقول تارة اخرى: (أَوَلَوْ كانَ الشَّيطانُ يَدْعُوهُمْ اِلى عَذابِ السَّعِيْرِ) (لقمان / ٢١).

واخرى: (قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمّا وَجَدتُم عَلَيْهِ آبائُكُمْ).

(الزخرف / ٢٤).

* * *

إيضاحات:

١ ــ أنواع التقليد المختلفة:

إن تقليد الآخرين، سواء كان تقليداً لحي أو ميت، أو تقليداً لشخص أو فريق لا يخرج عن صور أربع:

١ ــ تقليد الجاهل للعالم:

أي تقليد الجاهل بشيء لمن له تخصص أو خبرة بفن أو علم، مثل مراجعة المريض للطبيب الخبير بعلم الطب.

٢ ــ تقليد العالم للعالم:

أي مراجعة أهل العلم أحدهم للآخر واتباع كلٌّ منهم للآخر.

٣ ــ تقليد العالم للجاهل:

أي يترك الانسان علمه وخبرته، ويتبع الجاهل ويقلده عشوائياً.

٤ ــ تقليد الجاهل للجاهل:

بأن يتخــذ قــوم جُهّال عادات ومعتقدات لأنفسهم بلا مبرر، ويقوم قوم آخر باتباع اولئك القوم وتقــليدهم فيهــا، وهــذا هو أكبر عامل لانتقال المعتقدات الفاسدة والتقاليد الخاطئة من قوم الى آخر، وهذا النوع من التقليد استهدفته أكثر الآيات التي ذمت التقليد.

واضح أن القسم الاول مــن التقليد هــو القســم المنطقــي الوحيــد، وقد اعتمدت حياة الناس على ذوي الاختصاصات وعلى هذا النوع من التقليد المنطقي، لأن الانسان حتى لو كان نابغة زمانه لا يمكنه التخصص في جميع الاختصاصات والفروع العلمية، خصوصاً، وأن العلم ــ في هذا العصر ــ أصبحت له فروع وتشعبات لا تُعد ولا تُحصى، ومن المحال أن يتخصص انسان في فروع علم أو فن واحد، فضلا عن جميع العلوم والفنون.

وعلى هذا، فكل انسان يمكنه أن يكون مجتهداً فــي فرع من فــروع العــلوم، أما في الفروع الاخرى التي لم يجتهد فيها، فلا طريق له إلاّ الرجوع الى المتخصصين فيها.

إن المعمار يــراجع الطبيب اذا مــرض، والطبيب يــراجع المعمار اذا أراد بناء عمــارة، أي أنّ كلا منهما «مجتهد» في تخصصه و«مقلِّد» في التخصص الآخر، وهذا (رجوع الجاهل الى العالم وغيــر المجتهد الــى المجتهــد وغيــر المتخصص الى المتخصص) أصل عقلائي كان ولا يزال متعــارفاً ودارجاً بين النــاس، بــل إن آيــات الحياة تسير علــى عتلات هذا النــوع من التقليد، بالطبع إن هناك شروطاً ينبغي توفرها في المجتهد الذي يُرجع إليه، سنتعرض لها بعد ذلك.

وهذا التقليد هو الذي أشار إليه الله في القرآن الكريم وعنونه بــ (الأُسوة الحَسَنَةَ).

(الاحزاب / ٢١).

كما جاء في ســورة الانعام الآية ٩٠: (أولــئِكَ الَّــذِيْنَ هَــدَى اللهُ فَبِهُــداهُمُ اقْتَدِه).

ورغم أنّ الخطاب موجه للرســول (صلى الله عليه وآله وسلم)، لــكن لا يبعــد ان يكون المراد الأُمة أجمع.

أما الاقسام الثلاثة الباقية من التقليد فكلها باطلة ولا أساس مــنطقي لهــا، فتقليد (العالم للجاهل) و(الجاهل للجاهل) حالهما واضح، وأما تقليد (العالم للعالم) فاهن كان من باب مراجعة أحدهما الآخر للتشاور وتكميل المعلومات، فلا يُعدُّ هذا تقليداً بل هو نوع من «التحقيق».

إن التقليد هو غض الطــرف عن التخصص الذي يــمتلكه الانســان واتباع شخص آخر اتباعاً عشوائياً، فالمسلّم أن التقليد لــشخص قادر على التحقيق أمر مذموم ونادر، ولهذا ورد (حرمة التقليد للمجتهد) في الفقه الاسلامي.

ويتضــح ممــا قلنا فلسفــة تقــليد غيــر الفقهــاء في المسائل الفقهيــة للمجتهدين، ومثل

هذا دراج في جميع الفروع العلمية، وبما أن الفقه الاسلامي واسع الى درجة حيث لا يمكن للناس جميعاً أن يجتهدوا، فجميع أبوابه والتحقيق فيها تعيّن على فريق منهم الاجتهاد بالفقه، وعلى الناس اتباعهم، إلاّ أن الأمر يختلف عنه في اصول الدين، فيتعين التحقيق والاجتهاد فيها على كل مسلم، وذلك لامكانيتهما، فلا يجوز التقليد فيها.

* * *

٢ ــ شروط التقليد الممدوح:

[٣١٧]

عادة ما يقال في تعريف «التقليد» انه عبارة عن قبول كلام الآخرين بلا دليل وتارة يوسعون المفهوم ويعتبرون الاتباع العملي تقليداً من دون الالتزام بحديث أو كلام للآخرين، وتارة يعدون التأثرات اللا إرادية (التي تتركها أعمال وسلوك وصفات الآخرين عند الانسان) قسماً من التقليد.

بالطبع إن القسم الاخير من التقليد (الذي يتحقق بشكل غير ارادي) خارج عن موضع بحثنا، أما القسم الثاني والثالث، فيمكن ان يكونا ممدوحين اذا ما توفر شرطان في «المقلَّد» ــ أو مرجع التقليد ــ وهما: الخبرة والصدق، أي كونه من أهل العلم أولا، وينقل ما يوحي إليه علمه بصدق ثانياً. واذا ما انتفى هذان الشرطان دخل التقليد فئي القسم المذموم.

ومن جهة اخرى، ينبغي ان يكون موضوع التقليد من مواضيع الاختصاصات كي يباح التقليد فيه، أما اذا كان من المسائل العامة التي يتمكن للناس كافة في الخوض والتحقيق فيها (مثل اصول الاعتقادات وبعض المسائل الالخلاقة والاجتماعية غير ذات الجانب الاختصاصي) فانه يتعين على كل انسان التحقيق فيها والوصول إليها بنفسه.

ومن جهة ثالثة، فان المقلِّد ينبغي أن لا يكون قادراً على الاستنباط، فاذا ما قدر على ذلك في مسألة ما، مُنع من التقليد فيها.

ومن هنا تتضح حدود التقليد الممدوح والتقليد المذموم من الجهات الثلاث (أي شروط المرجع وشروط المقلِّد) وشروط الموضوع المقلِّد فيه).

ننهي كلامنا هذا بحديث عن الامام الصادق(عليه السلام):

قال رجل للصادق(عليه السلام): اذا كان هؤلاء العوام من اليهود لا يعرفون الكتاب الأ بما يسمعونه من علمائهم فكيف ذمّهم بتقليدهم والقبول من علمائهم؟ وهل عوام اليهود إلاّ كعوامنا يقلّدون علماءهم. فقال(عليه السلام): بين عوامنا وعوام اليهود فرق من جهه وتسوية من جهة امّا من حيث الاستواء فان الله ذم عوامنا بتقليدهم علماءهم

كما ذمّم عوامهم، وامّا من حيث افترقوا فان عوام اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصراح واكل الحرام والرشا وتغيير الاحكام واضطرّوا بقلوبهم الى أن من فعل ذلك فهو فاسق لا يجوز ان يصدّق على الله ولا على الوسائط بين الخلق وبين الله فلذلك ذمهم. وكذلك عوامنا اذا عرفوا من علمائهم الفسق الظاهر والعصبية الشديدة والتكالب على الدنيا وحرمها فمن قلّد مثل هؤلاء فهو مثل اليهود الذي ذمّهم الله بالتقليد لفسقة علمائهم فأما من كان من الفقهاء صائنا لنفسه حافظا لدينه مخالفا على هواه مطيعاً لامر مولاه فللعوام أن يقلّدوه(١).

* * *

٣ ــ عوامل التقليد الأعمى:

التقــليد الأعمى أو بتعبيــر آخــر: (تقليد الجاهل للجاهل) والأســوء منــه (تقليد العالم للجاهل)، دليل على الارتبــاط الفكري، ولــه عوامل عــديدة، نتعرض لبعضها بالاجمال هنا:

١ ــ عدم النضج الفكري: إن أشــخاصاً قــد ينضجون ويبــلغون جسميــاً، إلاّ أن فكرهم لا يستقل ولا يبلغ الى آخر العمر، ولهذا يضلون من أتباع هذا وذاك، ولا يفكرون يوماً في مسألة ما ولا يحللونها باستقلال.

إن أنظار هؤلاء تترصد الآخرين دائماً، فيرددون ما يتفوه به الاخرون، وكأنهم خُلِقوا بلا إرادة، ولهذا قد يغيروا اتجاههم بالكامل اذا ما تغيرت بيئتهم أو تغير محيطهم.

إن طريق مكافحة هذا النوع من التقليد الأعمى هو رفع المستوى الثقافي للمجتمع والسعي لازدهغر الأفكار والقابليات.

---

١ – الوسائل الجزء ١٨ الصفحة ٩٤.

٢ ــ التأثر بشخصية: وهي أَنْ يتأثَرَ الانسان بشخصية ما ويجعلها أســوة له بحيث لا يرى نفسه أهلا لإبداء الرأي أمام صاحبها، فيتبعه بكل معنى الكلمة ويسير خلفه وإن لم تكن تلك الشخصية أهلا للاتباع والتقليد.

٣ ــ التعــلق الشــديد بالأسلاف: والتعــلق هذا قــد يصنع منهم أناساً مقدسين وإن لم يكونوا .هلا لذلك، فتتبعهم الأجيال اللاحقة عشوائياً. ومع ان الأجيال اللاحقة التي ترث علوم السالفين وتضيف اليها علوماً اخرى تكون اكثر وعياً بطبيعة الحال، لكنها مع ذلك تبتلي بالتقليد

الشعوائي.

٤ ــ التحزّب أو التعصّب الطائفي: إن تعصباً كهــذا يدفع بفــريق من النـــاس لاتباع حزب أو طائفة والسير خلفهما والتمسّك بترديد ما يتبناه ذلك الحزب او تلك الطائفة، بحيث لا يسمح الانسان لنفسه التفكير باستقلال والعمل خارج اطار الحزب أو الطائفة.

إن هذه العوامل الأربعة وعوامل اخرى سببٌ لانتقال كثيــر مــن الخرافات والأوهام والعقــائد الباطلة والتقــليد والعــادات الخاطئة والسنن الجاهلية والأعمال القبيحة من قوم الى قوم آخرين ومن نسلى الى نسل آخر.

وبتعبير آخر، فان الميول الخاطئة تجعل حجاباً على فكر الانسان تحول دون معرفته للحق.

* * *

٨ ــ حجاب حب الرفاه

في البداء نصغي خاشعين الى الآيات التالية:

[٣٢٠]

١ ــ (وَإِذا أُنْــزِلَتْ سُــورَةٌ أَنْ آمِنُــوا بِــاللهِ وَجــاهدُوا مَــعَ رَسُــولِــهِ اسْتَــأْذَنَــكَ أُولُوا الطَّــوْلِ مِنْهُــمْ وَقــالُوا ذَرْنــا نَــكُنْ مَــعَ الْقــاعِــدِينَ * رَضُــوا بِــأَنْ يَــكُونُــوا مَــعَ الْخَــوالِفِ وَطُبِــعَ عَلــى قُلُــوبِهِــمْ فَهُــمْ

لا يَفْقَهُــونَ)

(التوبة / ٨٦ ــ ٨٧)

٢ ــ (إِنَّمــا السَّبِيــلُ عَلَــى الَّــذِيْنَ يَسْتَــأْذِنُــونَــكَ وَهُــمْ أَغْنِيــاءُ رَضُــوا بِــأَنْ يَكُونُوا مَــعَ الْخَوالِــفِ وَطَبَــعَ اللهُ عَلــى قُلُوبِهِــمْ فَهُــمْ لا

يَعْلَمُــونَ)

(التوبة / ٩٣)

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

اعفنا من الجهاد:

أشارت الآية الاولى الى اولئك الذين لم يستعدوا لتنفيذ الأوامر الالهية في مجال الجهاد، فبالرغم من اقتدارهم الجسمي والمالي للحضور في سوح القتال لكنهم انضموا إلى صفوف القاعدين

وغير القادرين على الجهاد، وقد ألحوا على الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) بأن يذرهم ويجعلهم مع القاعدين والخوالف.
و«القاعدين» جمع «قاعد» وهم المعذورون عن الجهاد.
و«الخوالف» جمع «خالفه» ومن مادة (خَلْف) ومعناها يقابل الإمام، ولهذا يقال «خالفة» للنساء اللاتي تبقى ماكثة في البيت عند خروج رجالهن، ولا يبعد أن يكون مفهوم هذه المفردة أعم من النسا، بحيث يشمل جميع العاجزين

[٣٢١]

عن الجهاد والمعذورين عن الالتحاق بساحات القتال من النساء والأطفال والشيوخ والمرضي.
يقول الراغب في مفرداته: إن «خالفة» عمود يجعل في نهاية الخيمة وتطلق ــ كناية ــ على النساء الماكثات في البيت، ويقول البعض: إن «خالف» من تخلّف كثيراً(١).
وتستعمل هذه المفردة ــ أحياناً ــ بمعنى «كرية الرائحة» من باب أن الرائحة الكريهة تستخلف الرائحة الجيدة اذا ما ذهبت.
وقال البعض: إنها بمعنى الانحطاط والميل الى الامور الدنيئة لانَّ هذا المَيْل يدلّ على التخلف(٢)، إلاّ أن المعنى الأول أنسب من بقيّة المعاني.
وعلى أي حال، فان محبي الرفاه وطلبة العافية غير مستعدين للايثار والتضحية عند الازمات والكوارث الاجتماعية، وهم مستعدون لأن يُجعلوا في صفوف الأطفال والمرضى دون أن يلتحقوا بصفوف المجاهدين، ويقول القرآن فيهم، في نهاية الآية نفسها: (وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لا يَفْقَهُونَ).
نعم، إن حب الراحة والرفاه كالحجاب الذي يمنع من الرؤية الفكرية الصحيحة، فهؤلاء لا يدركون أن السعادة ليست بالأكل والشرب، بل قد تكون في الحضور في ميادين الجهاد، وفي التخضب بالدماء، وبلقاء الله، إلاّ ان الذي لا يفهم هذه الامور يستهزأ بها.
* * *
وتشير الآية الثانية الى المعذورين عن الجهاد مثل الضعفاء والمرضى

---

١ – المنار الجزء ١٠ الصفحة ٥٧٢.
٢ – تفسير الفخر الرازي الجزء ١٦ الصفحة ١٦٣.

[٣٢٢]

والذين لا يملكون الوسيلة للقيام بهذا الأمر، بينما تشتاق اليه قلوبهم، وتصب دموعهم لعدم اقتدارهم على الانفاق، يقول الله فيهم: (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِيْنَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ).

ثم يضيف: (وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) وذلك لأن الميل الى الراحة جَعَلَ حجاباً سميكاً على قلوبهم فلا يكادون يفقهون شيئاً، إن كلتا الآيتين توضح حقيقة واحدة وهي العلاقة بين «التخلف عن الجهاد لأجل الراحة والصحة» و«عدم إدراك الحقائق».

* * *

٩ ــ حجاب الأمانيّ

١ ــ (يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ) (الحديد / ١٤)

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

الآمال الطويلة:

إن « الأماني » جمع « أمنية » وتطلق على الحالة النفسية التي تعرض

للانسان من جراء تمنيه لشيء ما(١)، والجدير بالذكر ان الاماني المعقولة والمنطقية ليست نقصاً، بل هي عامل لتقدم البشر وبناء مستقبل أفضل لهُ من الحاضر، انما النقص في الآمال البعيدة وغير المنطقية، ولهذا يفسرون الاماني في موارد كهذه بالمعنى الثاني، حيث تجعلُ الانسان في غفلة وتسدل حجاباً من الظلمة على قلبه.

ويقول ابن الاثير: إن التمني يعني تشهّي حصول الامر وكذلك يطلق على ما يخطر على النفس بالنسبة للمستقبل، كما ان «مُنْية» و«الأُمْنيّة» وردتا بمعنى واحد(٢). إلاّ ان بعضاً فسّر «الامنية» بالكذب، ذلك لان الكذب يُقدّر أمراً في قلبه ثم يحدّث به(٣).

يقول الراغب: لما كان الكذب تصوّر ما لا حقيقة له صار التمني كالمبدأ للكذب فصحّ ان يُعبّر عن الكذب بالتمنّى.

وادعى البعض: ان معنى هذه المفردة في الاصل هو التقدير والفرض والتصوير(٤)، وقد

قيــل للاماني أماني لأن الانسان يقدرها ويصورها في ذهنه.
وعلى أي حال، فان المؤمنين عنــدما يجتــازون المحشر نحــو الجنة بسرعة في ظل الايمان يصرخ المنافقون والمنافقات: انظرونا نقتبس من نوركم. فيجيبهــم المؤمنــون : (ارجعوا ورائكم (الدنيا) فَــالْــتَمِسُــوا نُــوراً فَضُــرِبَ بَينَهُــم بِسُــور لَــهُ بــابٌ بــاطِنُهُ فيــهِ الْــرَحْمَــةُ وَظَــاهِــرُهُ مِــنْ قــبَلِهِ الْعَــذاب). (الحديد / ١٣).
وعنــدها يصــرح المنــافقون: (أَلَــمْ نَكُنْ مَعَكُمْ) فــي الدنيــا في مجتمــع واحد وقد كنا في بعض الطريق معكم؟ فما الذي حصل حيث انفصلتم عنا واتجهتم

---

١ – مفردات الراغب، وينبغي الالتفات الى أن الأماني جمع أمنية، أما مُنى فجمع منية.
٢ – لسان العرب.
٣ – المنجد مادة مني.
٤ – المنجد مادة مني.

نحو رحمة الله وتركتمونا في العذاب؟
فيجيبهــم المؤمنــون «بلى» كنا معكم في مجتمــع واحــد، في الزقــاق وفي السوق، وفي السفر والحضر، وكنا جاراً لكم، بل عشنا في بيت واحد، ولكنكم أخطتم خمسة أخطاء فاحشة، الأوّل أنكم سلكتم طريق الكفر والنفاق ففتنتم أنفسكم (وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُم اَنْفُسَكُم).
وثانياً، أنكم (تربصتم) وترصدتم فشل المسلمين، وموت الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، وتحججتم في كل عمل خير.
وثالثاً (وَارْتَبْتُم) وترددتم خاصة في مسألة المعاد، وحقانية الاسلام.
ورابعاً (وَغَرَّتْكُمُ الأَمانِيُّ) التي نسجت حجاباً ضخماً على عقولكم وأفكاركم (حَتّى جاءَ أَمرُ الله).
وخامساً (وَغَرّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ) أي غركم الشيــطان بعفــو الله ووعدكم بألاّ يَنالَكُمْ عذابه.
نعم، إن هذه العوامل معاً أوجدت المنظر الذي صوره القرآن لنا، وهي التي سببت خلق سور عازل بين المؤمنين والمنافقين.
إن شــاهد حديثنــا هو الجملة الرابعة، حيث جــاء فيهــا (وَغَرَّتْكُمُ الأَمانِيُّ)، فان الأماني قد تصل الى درجــة بحيث تشغــل فكر الانســان بالكامــل، فيغفل عن كلّ شيء، ويظل فــي عالــم الوهــم والظن، فتعمــى عينا، ويثقــل سمعــه، ويفقــد وعيــه (إذا كان واعيــاً)، ويضــل فــي الظلمات التــي وضعها بنفســه
تائهاً.

إن سعة الأماني قد تصل الى درجة يرسم صاحبها خططاً لنفسه لا يمكن تطبيقها حتى لو كان نوحاً في العمر، وقد يقوم بمقدمات امنيةً، الكلُّ يعلم بعدم امكانها حتى لو كان قد بدأ بها منذ قرون، وهذا هو حجاب الاماني الذي يحول دون المعرفة.

[٣٢٥]

وقد نقل بعض المفسرين خمسة أقوال في تفسير الأماني إضافة الى الآمال البعيدة، والأقوال هي:
(تمني فشل المؤمنين وضعتهم، وإغواء الشيطان، والدنيا، وتوقع استغفار الرسول للمنافقين، وتذكّر الحسنات ونسيان السيئات)(١)، وقد فسرها البعض بـ «الأباطيل».
* * *

إيضاحات:

حجاب الأماني في الروايات الاسلامية:
إنّ مسألة (الآمال الطويلة والأوهام البعيدة عن الواقع، وانها تجعل حجاباً على عقل الانسان وشعوره) لم يشر اليها في القرآن الكريم فحسب، بل لها شواهد كثيرة في الروايات الاسلامية والتواريخ ايضاً، ففي حديث مشهور للامام علي(عليه السلام)يقول فيه: «إن أخوف ما أخاف عليكم إثنان، إتّباع الهوى وطول الأمل، فأمّا اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة»(٢).
ويقول في كلماته القصار: «الأماني تُعمي أعين البصائر»(٣).
ونقرأ في حديث آخر لنفس الامام(عليه السلام): «جماع الشرفي الاغترار بالمُهل والاتكال على الأمل»(٤).
كما نقل عن نفس الامام في هذا المجال أنه قال: «غرورُ الأملِ يفسدُ العلم»(٥).

---

١ – تفسير القرطبي الجزء ٦ الصفحة ٦٤١٧.
٢ – نهج البلاغة الخطبة ٤٢.
٣ – الكلمات القصار، الجملة ٢٧٥.
٤ – غرر الحكم (حرف ج رقم ٥٥).
٥ – غرر الحكم.

[٣٢٦]

والخلاصة ان من يــريد الاطلاع على جمال الحقيقة كما هي ويصــل الى ينبوع المعرفة الصافي، ينبغي له أن لا يغطي عقله بحجاب الأماني السميك، وأن لا يضل في متاهات طريقها.
ونختم هذا البحث بحديث آخر للامام امير المؤمنين(عليه السلام) حيث يقول فيه: «واعلموا أن الأمل يُسهي العقل ويُنسي الذكرَ فأكذبوا الأمل فإنّه غرورٌ وصاحبه مغرور»(١).
* * *

---

١ – نهج البلاغة الخطبة ٨٦.

القسم الثاني:

الأعمال التي تحجب

عن المعرفة

القسم الثاني

الأعمال التي تحجب عن المعرفة

١٠ ــ حجب الذنوب

نصغي خاشعين معاً للآيات التالية:
١ ــ (الَّــذِينَ يُكَــذِّبُــونَ بِيَــوم الدِّيْن * وَما يُكَــذِّبُ بِــه اِلاّ كُلُّ مُعْتَــد أَثِيْــم * اِذا تُتْــلى عَلَيْــهِ آيــاتُنــا قــالَ أَســاطِيرُ الأَوَّلِينَ * كَــلاّ بَلْ رانَ عَلَــى قُلُــوبِهِــمْ ما كانُــوا يَكْسِبُونَ) (المطففين / ١١ ــ ١٤)
٢ ــ (فَهَلْ عَسَيْتُــمْ إنْ تَوَلَّيْتُــمْ أَنْ تُفْسِــدُوا فِــي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُــوا أَرْحــامَــكُمْ * أولْــئِكَ الَّــذِيْــنَ لَعَنَهُــم اللهُ فــأَصَمَّهُــمْ وَأَعْمــى

أَبْصــارَهُــمْ) (محمد / ٢٢ ــ ٢٣)
٣ ــ (أَوَ لَــمْ يَهْدِ لِلَّــذِيْنَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشــاءُ أَصَبْنــاهُمْ بِذُنُوبِهِم وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُم لا يَسْمَعُــونَ) (الاعراف / ١٠٠)
٤ ــ (ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِيْنَ أَساؤُوا السُّوأى أَنْ كَذَّبُوْا بِآيــاتِنــا)

[٣٣٠]

(الروم / ١٠)
* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

الذنب يُعمي الانسان ويصمه:
أشارت الآيــة الاولى الى اولئك الذين أنــكروا القيامــة بالكــامل، وأضافت: ان القيــامة لا ينــكرها إلاّ المعتــدون والآثمون، فــانهم لا يخضعون أمام الــحق ولا يسلمــون إليه أنفسهم أبداً، ولهذا إذا تُليت عليهم آيات الله قالوا: أساطير الأولين.

ويَصرح القرآن: ان الأمر ليس كما يتوهم هؤلاء، وقولهم هذا سببه الصدأ الذي أحاط قلوبهم وحال دون أن يعقلوا شيئاً.
لقد استخــدمت مفــردة « رَيْن » في هذه الآيــة الكريمة، وقــد قلنا ســابقاً: ان لها معاني ثلاثة (على ما يدعيه أئمة اللغة) الاول: الصدأ الذي يعــلو الأشياء القيّمة، الثاني: الصدأ الذي يعــلو الفلزات وهو علامة تَأكل وفساد ذلك الفلز، الثالث: كل شيء غــلب علــى شيء آخر، ولهذا تستعمل هذه المفردة في مجال غلبة الشراب المسكر على العقل وغلبة الموت على الأحياء، وغــلبة النوم على العيون(١).
والطبع يمكن جمع هذه المعاني الثالث في مفهوم واحد وهو الصدأ الذي يستحوذ على الأشياء ويعلوها، ثم اطلقت هذه المفردة على غلبة كل شيء على شيء آخر.
ونستشف من هذه الآية أن الاثم يعكر صفاء القلب بحيث يمنع انعكاس

---

١ – تفسير الفخر الرازي الجزء ٣١ الصفحة ٩٤، وروح المعاني الجزء ٣ الصفحة ٧٢.

[٣٣١]

الحقائق في هذه المرآة الالهية، وإلاّ فان آيات الله خصوصاً في مسألة المبدأ والمعاد واضحة ولا تقبل للانكار.

ولهذا فقد قال بعض المفسرين : يظهر من هذه الآية أولا : ان الأعمال القبيحة تُوجِد نقوشاً وصوراً في نفس الانسان، وثانياً: ان هذه الصور والنقوش تحول دون إدراك الحق.

وثالثاً : إن روح الانسان ــ وحسب طبيعتها الأولية ــ صافية وشفافة، وتدرك الحقائق كما هي، وتميز بين الحق والباطل وبين التقوى والفجور، كما جاء ذلك في الآيات (٧ و ٨) من سورة الشمس (وَنَفْس وَما سَوّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها)(١).

وقد حلل المفسرون آخرون المسألة بشكل ملخص آخر.

عندما يكرر الانسان عملا ما فان ملكة نفسانية لذلك العمل ستحصل عنده تدريجياً، كالقراءة والكتابة، ففي البداية يشق عليه الأمر، وبعد الممارسة يتمكن منهما بدرجة لا يحتاج فيهما الى فكر ودراسة.

وكذلك الأمر بالنسبة للذنوب، فبالاصرار عليها وارتكابها مرات عديدة تحصل هذه الملكةُ عند الانسان، ونعلم أنه لا حقيقة للذنب غير إشغال القلب بغير الله، والتوجه لغير الله ظلمة، وعندما تتراكم الظلمات على القلب تسلبه صفائه وشفافيته، وإن لهذه الظلمات درجات ومراحل، المرحلة الاولى هي مرحلة «الرَيْن» أو الصدأ، والمرحلة الثانية هي مرحلة «الطبع» والمرحلة الثالثة هي مرحلة «الأقفال» وهي أشد المراحل.

* * *

والآية الثانية ناظرة الى المنافقين الذين يَدّعون الايمان، فاذا ما نزلت آية في الجهاد تمارضوا وتذرّعوا بذريعة من هو على وشك الموت، فيخاطبهم

---

١ – الميزان الجزء ٢٠ الصفحة ٣٤٩.

القرآن قائلا، إن استمراركم في مخالفتكم هذه وإعراضكم عن العمل بكتاب الله، سيؤدي بكم الى أن تفسدوا في الارض، وأن تقطعوا أرحامكم، ولا يأمن شركم حتى أرحامكم، ثم يضيف: (أولئِكَ الَّذينَ لَعنهُم الله (بذنوبهم) فأصمّهم وأعمى أبصارهم) فما كادوا يسمعون الحق ولا يرونه.

وقد كشفت هذه الآيات عن ان النفاق حجاب للقب والروح من جهة، ومن جهة اخرى عن علاقة الذنوب خصوصاً (الفساد في الارض) و(قطع الرحم) و(الظلم والجور) بادراك الانسان وتمييزه بين الحق والباطل.

فسّـــر البـــعض عبارة «إن توليتم» بالاعراض، وفسرها بعض آخر بالولاية والحكومة، أي أنَّ مقاليد الامور إذا أصبـــحت بأيديكم فستفسدون وتريقون الدماء وتقطعون الارحام(١)، ولهذا جاء عن أميرالمؤمنين(عليه السلام): ان الآية نزلت في بني امية(٢)، وهذا تلميح الى أنهم عند استلام زمام الامـــور والحكومة الاسلامية ســـوف لا يـــرحمون صغيراً ولا كبيراً، ولم يسلم من ظلمهم أحد حتى أقاربهم وذووهم.

وسواء كان معنى « التولي » هنا هو الاعراض عن الجهاد أو استلام مقاليد الامور في الحكومة والفساد في الأرض، فان ذلك لا يضر ببحثنا، لأن الآية على أي حال تبين ان الذنوب حجاب للقلوب.

* * *

وقد أشارت الآية الثالثة الى اولئك الذين ورثوا الاسلاف من دون أن يعتبروا بمصيرهم الذي ابتلوا به، فخاطبتهم: (لو نَشاءُ أَصَبْناهُم بِذُنوبهم وتطبعُ على قُلُوبِهِمْ فَهُم لا يَسْمَعُونْ).

---

١ – ورد كلا التفسيرين في تفسير روح المعاني ومجمع البيان والميزان في ذيل الآيات المذكورة في البحث.

٢ – تفسير نور الثقلين الجزء ٥ الصفحة ٤٠ الجزء ٥٩.

عطف العقاب على الذنوب مع الطبع على القلوب والآذان، تلميح الى العلاقة بين هذين الاثنين. ويقول البعض: إن الله إذا شاء عذّبهم بأحد العذابين: إمّا إهلاكهم بسبب ذنوبهم، وإمّا إبقاءهم أحياء مع سلب قدرة تمييز الحق عن الباطل منهم، وهذا عذاب أتعس من عذاب الهلاك الالهي.

إلاّ أنه بالالتفات الى مجيء «أصبناهم» بصيغة الماضي و«نطبع على قلوبهم» بصيغة المضارع، نفهم أن الجملة الثانية مستقلة وليست عطفاً على ما قبلها، فيكون معنى الآية هكذا: (سواء عجلنا بعذابهم أم لم نعجل فَنحن نطبع على قلوب هؤلاء ونلقي حُجباً عليها)(١).

* * *

أشـــارت رابع وآخر آية الى عاقبة الذين يرتكبون الأعمال السيئة فقالت: (ثُمَّ كـــانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ أســـاؤا الســـوآى أنْ كَـــذَّبُوا بآياتِنـــا) لِمَ لا يـــكون مصيـــرهم هذا والذنب كالمرض الذي ينقض على ورح الانسان فيتآكل الايمان من جرائه؟ ولِمَ لا يكون هكذا وهو كالحجاب الذي يغطي القلب ويعميه؟ والأسوأ أنّه لا يكفر فحسب، بل يفتخر بكفره، وقد شهد التاريخ الكثير من هؤلاء.

وخلاصة الحديث، إن القرآن يعدُّ الذنوب والمعاصي من موانع المعرفة، وهذه حقيقة ملموسة

ومجربة عند كثير من الناس، فبمجرد صدور ذنب أو معصية منهم يشعرون بظلمات خاصة في قلوبهم، وإذا ما مالوا الى الطهارة والتقوى يشعرون بأنوار ترتاح لها قلوبهم.

* * *

---

١ – جاء هذا كاحتمال في تفسير الفخر الرازي، في ذيل نفس الآية، إلاّ ان صاحب تفسير الميزان عَدَّ الجملة الثانية معطوفة على «أصبناهم» التي تفيد الاستقبال، لكن الظاهر أن التفسير الاول أنسب.

إيضاحات:

إن الذنب حجاب في الروايات الاسلامية:

لقد انعكست هذه الحقيقة في الروايات الاسلامية بشكل واسع نذكر هنا نماذج منها:

١ ــ جاء في حديث للرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول فيه:

«إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فاذا هو نزع واستغفر الله وتاب صَقُل قلبه فان عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه، وهو الرّان (الرين) الذي ذكر الله في كتابه (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)(١).

٢ ــ ونقرأ في حديث الامام الصادق(عليه السلام): أنه قال فيه:

«كان أبي يقول ما من شيء أفسدُ للقلب من خطيئة انّ القلب لَيُواقع الخطيئة فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله»(٢).

بديهي ان المراد من (أعلاه أسفله) تغير قدرة الانسان على التمييز ــ بسبب الانس بالذنوب ــ حيث يرى الحسن قبحاً والقبح حسناً، وهي أخطر مرحلة.

٣ ــ وقد جاء في حديث آخر للامام الصادق(عليه السلام) أيضاً يقول فيه:

«إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء فان تاب انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يُفلحُ بعدها أبداً»(٣).

واضح، ان الشرط الاول للفلاح هو إدراك الحقائق، فالذي تعطّل قلبه (عقله) عن العمل كيف يمكنه الوصول الى السعادة والفلاح؟!

وقد جاء نفس المضمون في رواية اخرى عن الامام الباقر(عليه السلام) في تفسير الآية

١ – تفسير القرطبي الجزء ١٠ الصفحة ٧٠٥٠، روح المعاني الجزء ٣ الصفحة ٧٣، وتفسير الفخر الرازي الجزء ٣١ الصفحة ٩٤.

٢ – اصول الكافي الجزء ٢ باب الذنوب الحديث ١٣.

٣ – اصول الكافي الجزء ٢ باب الذنوب الحديث ١٣.

[٣٣٥]

(كَلاّ بَلْ رانْ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ)، وتم التعبير فيه بالنقطة السوداء والنقطة البيضاء حيث تتغلب السوداء نتيجة تراكم الذنوب على البيضاء النورانية وتغطيها(١).

٤ ــ وفي حديث آخر للرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول فيه:

(كَثْرَةُ الذُنُوبِ مُفْسِدةٌ لِلْقَلْبِ)(٢).

٥ ــ وقد نقل في كتاب الخصال حديث عن الرسول جاء فيه:

«أربع خصال يُمتن القلب: الذنب على الذنب ...»(٣).

ولهذا، فإنّا أُمرنا ــ لمحو آثار الذنوب ــ قراءة ودراسة أحاديث الائمّة إضافة الى التوبة، كما نقل ذلك في نور الثقلين عن الرسول الاكرم(صلى الله عليه وآله وسلم):

«تذاكروا وتلاقوا وتحدثوا فان الحديث جلاء للقلوب وَإن القلوب لترين كما يرين السيف، وجلاءه الحديث»(٤).

٦ ــ وقــد أشار أمير المؤمنين(عليه السلام) لهذه الحقيقة في خطبة له محاطباً بها بعض عمي القلوب:

« قد خــرقتِ الشهــوات عقله وأماتت الدنيا قلبه وولهت عليها نفسه فهو عبد لها»(٥).

٧ ــ وقد نقل الامام الصادق(عليه السلام) عن الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال:

«إذا ظهر العلم واحترز العمل وائتلفت الألسن واختلفت القلوب وتقاطعت الأرحام هنا لك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم»(٦).

---

١ – نفس المصدر الحديث ٢٠، وقد نقل نفس المضمون في مجمع البحرين في مادة «ارين» أيضاً.

٢ – الدر المنثور الجزء ٦ الصفحة ٣٢٦.

٣ – الخصال الجزء ١ الصفحة ٢٥٢ الحديث ٦٥، وقد جاء مضمون يشبه هذا في الدر المنثور الجزء ٦ الصفحة ٣٢٦.

٤ – نور الثقلين الجزء ٥ الصفحة ٥٣١ الحديث ٢٣.
٥ – نهج البلاغة الخطبة ١٠٣.
٦ – نور الثقلين الجزء ٥ الصفحة ٤١ الحديث ٦٣.

٨ ــ وقد صُــرّح بهذا الأمر بالنسبة لبعض الذنوب كما جاء ذلك في حديث لأمير المؤمنين(عليه السلام) مخاطباً به اولئك الذين تركوا الجهاد:
«ألبسه الله ثوبَ الذل ... وضُرب على قلبه بالأسهاب وأُديل الحق منه بتضييع الجهاد»(١).
* * *

١١ ــ حجاب الكفر والأعراض

في البداية نصغي خاشعين الى الآيات التالية:
١ ــ (تِلْكَ الْقُــرَى نَقُصُّ عَلَيْــكَ مِنْ أَنْبــائِهــا وَلَقَدْ جــائَتْهُــمْ رُسُلُهُــمْ بِالْبَيِّنــاتِ فَمــا كــانُــوا لِيُؤْمِنــوا بِما كَذَّبُــوا مِنْ قَبْلُ كَذلِــكَ يَطْبَــعُ اللهُ عَلَــى قُلُوبِ الْكــافِرِينَ) (الاعراف / ١٠١)
٢ ــ (فَبِمــا نَقْضِهِــمْ مِيثــاقَهُــمْ وَكُفْــرِهِــمْ بــآيــاتِ اللهِ وَقَتْلِهِــمُ الأَنْبِــاءَ بِغَيْــرِ حَــقٍّ وَقَــوْلِهِــمْ قُلُوبُنــا غُلْفٌ بَــلْ طَبَــعَ اللهُ عَلَيْهــا بِكُفْــرِهِــمْ فَــلا يُؤْمِنُونَ اِلاّ قَلِيلا) (النساء / ١٥٥)
٣ ــ (وَمَنْ أَظْلَــمُ مِمَّنْ ذُكِّــرَ بآيــاتِ اللهِ فَأَعْرَضَ عَنْهــا وَنَسِــيَ مــا قَــدَّمَتْ يَــداهُ اِنّــا جَعَلْنــا عَلَــى قُلُوبِهِــمْ اَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُــوهُ وَفِي آذانِهِــمْ وَقْراً وَاِنْ تَدْعُهُــمْ اِلى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا اذاً أَبدا)

---

١ – نهج البلاغة الخطبة ٢٧.

(الكهف / ٥٧)
٤ ــ (وَالَّذِيْنَ لا يُؤْمِنُونَ فِــي آذانِهِم وَقْر وَهُوَ عَلَيْهِــمْ عَمــىً أُولــئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكــان بَعِيد)

(فصلت / ٤٤)

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

لِمَ يحجب الذنبُ القلوبَ عن الفقه؟

إنَّ الآية الاولى بعد إشارتها الى تاريخ وقصص خمسة أقوام من الأقوام السالفة وهم (قوم نوح، وهو، وصالح، ولوط، وشعيب) حيث نزل عيهم العذاب الالهي لتكذيبهم آ ات الله، قالت: (تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ ...).

إن جملة (وكَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ) لا تشير الى أي كافر كان، وذلك لأن كثيراً من المؤمنين كانوا في صفوف الكفار والتحقوا بصفوف المؤمنين بعد سماعهم لدعوة الأنبياء، فالمراد ــ إذن ــ ذلك الفريق من الكافرين الذين ألحوا وأصروا على كفرهم، فان كفرهم هذا يحول دون معرفتهم ورؤيتهم للحق.

والشاهد على هذا الكلام هو قوله: (فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كذّبُوا مِنْ قَبْلُ) أي ان تعصبهم بلغ درجةً لا تسمح لهم بتغيير طريقتهم والرجوع عن الباطل الى الحق، وقد ذكرت خمسة وجوه في تفسير هذه الجملة في تفسير الميزان والفخر الرازي(١)، إلاّ أن أظهرها هو ما تقدم اعلاه.

---

١ – الميزان الجزء ٨ الصفحة ٢١٥، تفسير الفخر الرازي الجزء ١٤ الصفحة ١٨٦.

والآية الثانية بعد ما أشارت الى سلوك فريق من اليهود وعدائهم للأنبياء قالت: (فَبِما نَقْضِهِمْ مِيْثاقَهُمْ وكُفْرِهِمْ بِآياتِ ...).

يقول القرآن: إنهم لا يفقهون شيئاً وذلك لكفرهم فطبع الله على قلوبهم من جراء ذلك.

بديهي ان المراد من الكفر هنا هو الكفر المتزامن مع العناد، والكفر المتزامن مع العداء للأنبياء، والكفر المتزامن مع نقض المواثيق باستمرار والاستهزاء بآيات الله، ومسلم أن كفراً كهذا يجعل حجاباً على عقل الانسان لا يسمح لصاحبه أن يدرك الحقائق، وهذا شيء صنعته أيديهم ولا جبر في البين.

ويظهر ان مرادهم من «قلوبهم غلف» هو الاستهزاء بايات الله وبشخصية موسى بن عمران، لا أنهم يعتقدون أن قلوبهم خُلِقت مغلَّفةً لا تفهم الحقائق (كما جاء ذلك في بعض التفاسير)(١)، إلاّ أنَّ الله أخذ كلامهم بالجد وأجابهم: (بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ).

وهناك احتمال آخر وهو ان مرادهم من الجملة هو أن قلوب كلٍّ منهم كالوعاء المليء بالعلم والغمد الذي فيه السيف فلا تحتاج لعلوم الآخرين(٢)، إلاّ أن هذا الاحتمال بعيد جداً.
وعلى هذا، فهناك ثلاثة احتمالات في تفسير الآية والأول أنسب من الاخرين، وقد نقل في بعض التفاسير حديث ذا مغزىً عميق عن الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)يقول فيه: «الطابع مُعَلّق بقائمة العرش فاذا انتهكت الحرمة وعُمِل بالمعاصي واجتُريء على الله تعلى بَعَثَ الله تعالى الطابع فطبع على قلبه فلا يعقل بعد

---

١ – الميزان الجزء ٥ الصفحة ٣٨، والقرطبي الجزء ٣ الصفحة ٢٠٠٤.
٢ – لقد جاء هذا الاحتمال في التفاسير التالية: الفخر الرازي الجزء ١١ الصفحة ٨٧، والقرطبي الجزء ٣ الصفحة ٢٠٠٤، وروح المعاني الجزء ٦ الصفحة ٨.

ذلك شيئاً»(١).
والجدير ذكر هو ان «طابع» اسم فاعل للطبع و«طابَع» اسم آلة الطبع، ويظهر في الحديث ان الكلمة الاولى بالفتح والثانية بالكسر.
وهذا الحديث يؤكد بوضوح الحقيقة التالية: أنْ لا جبر هنا، وانّ حجب القلوب نتيجة لأعمال الانسان نفسه.
* * *
وَطرحت الآية الثالثة سؤالا تقريرياً حيث قالت: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ ...).
إن وجه اعتبار القرآن هؤلاء أظلم الناس واضح لأنهم ظلموا أنفسهم كما ظلموا الاخرين وكما ظلموا الله ودينه، وعليه فالآية لا تدل على عدم الجبر فحسب، بل تدل على الاختيار.
وما يلفت النظر هنا هو ان الفخر الرازي بالرغم من كونه من القائلين بالجبر، لكنهُ عندما يصل الى هذه الآية يقول: إن آخر الآية دليل لمؤيدي الجبر، بينما صدرها دليل لمؤيدي الاختيار! ثم يضيف: قلّما نجد آية في القرآن تؤيد أحد الفريقين، واذا ما وجدنا آية مؤيدة لفريق وجدنا قبالها اية تؤيد الفريق المقابل، والتجربة شاهد على ما نقول، وهذا امتحان صعب من الله للعباد، وذلك لكي يتميز الراسخون في العلم عن المقلِّدين(٢)! ياله من اعتراف عجيب؟!

---

١ – روح المعاني الجزء ٦ الصفحة ٨.

٢ – تفسير الفخر الرازي الجزء ٢١ الصفحة ١٤٢، والعجيب ان الالوسي في روح المعاني عندما نقل عبارة الفخر الرازي ادعى ان الفخر الرازي قال: إن هذه الآية من أدلة القائلين بالجبر والآية التي قبلها من أدلة القائلين بالاختيار. وقد نقصل صاحب الميزان العبارة من روح المعاني، بينما مراد الفخر الرازي صدر وذيل الآية نفسها (تأمل جيداً).

[٣٤٠]

ونضيف الى ما قاله الفخر الرازي: ان كلا من آيات القرآن لا يمكن دراستها وملاحظتها لوحدها من دون ملاحظة ودراسة الآيات الاخرى فضلا عن صدر وذيل الآية الواحدة، كما نقول: إن الآية بصدرها وذيـــلها دليل على مسألة الاختيار لا شيء آخر، وذلك لأن صدرها يقول: إن الاعراض عن آيات الله واقتراف الذنوب من أفعال الانسان وهو فاعلها باختياره، بينما ذيل الآية يقول: إن الله يعاقب المُصرّين على السير في هذا الطريق، وعقابهم هو جعل الأكنة على
قلوبهم.
وبتعبير آخر: إن الله جعل لهذه الذنوب آثاراً ومردودات، وتلك هي تعكُّر صفاء القلب، وسلب قدرة التمييز عن الانسان، وأي جبر في هذا الحديث؟!
مثله كمثل الخبير الذي يعلم بأن السم قاتل، وبالرغم من ذلك يتناوله. فهل هذا. التأثير القهري للسم جبر؟!
* * *
وقد أشارت الآية الاخيرة الى المعاندين والمتحججين الذين يسألون ــ أحياناً ــ هذا السؤال: لِمَ لَمْ ينزل القرآن أعجمياً كي نعيره أهمية أكبر ولكي لا ينحصر في العرب؟
(قد يكون غرضهم الأساسي من هذا هو عدم فهم الناس عامة له والاقبال عليه إذا ما كان عجمياً).
فأجابهم القرآن في صدر الآية: (وَلَوْ جَعَلْنَـــاهُ قُرآناً أَعْجَمِيّاً لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ) أي لأشكلتم اشكالا آخر وهو: ان القرآن مبهم وغامض، ثم يضيف القرآن: (ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) أي هل يصحّ لنبي عربي أن يحمل قرآناً أعجمياً؟ وهذا اشكالهم الآخر اذا ما نزل بلسان أعجمي.
ثم أمـــر الله الـــرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) بأن يجيبهـــم هـــكذا: (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً

[٣٤١]

وشفـــاء والذين لا يؤمِنُونَ في آذانِهِم وقرٌ وَهوَ عَلَيهِم عمىً وأُولئِكَ يُنادَوْنَ من مكان بَعيد).
وقد بيّنت الآية بوضوح ان التحجج والعناد والإصرار على الكفر يجعل حجاباً على القلوب يمنعها عن الادراك والفهم(١).

* * *

١٢ ــ حجاب الاعتداء والعدوان

(ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلا اِلى قَومِهِمْ فَجــاؤُهُمْ بِالْبَيِّنــاتِ فَمــا كــانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمــا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِيْنَ)
(يونس / ٧٤)

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

بيّنت الآية السابقة لهذه الآية من سورة يونس قصة نوح، حيث كان يدعو قومه لله ويسعى لهدايتهم وانذارهم من عذاب الله، إلاّ أنهم كذبوه، فاغرقهم الله بطوفانه وأهلكهم، وأنقذ المؤمنين منهم بالسفينة فورثوا الأرض.
ثم يضيف الله في الآية: إنا أرسلنا ــ بعد نوح ــ رسلا كلا الى قومه مع معاجز

---

١ – فسر البعض عبارة «وهو عليهم عمىً» بأن القرآن سبب لعمي هذا الفريق، بينما قال ابن منظور في لسان العرب والراغب في المفردات: إن جملة (عمى عليه) تعني اشتبه عليه حتى صار كالأعمى (تأمل جيداً).

وأدلة واضحة ومنطقية ورسائل يشهد محتواها على أحقيتهم، إلاّ انهم لم يخضعوا للحق واستمروا في تكذيبهم.
ويقول الله في ذيل الآية: (كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ)، وهذه اشارة الى ان الاعتداء والعدوان على الرسل يترك حجاباً في القلب يحول دون معرفة القلب لآيات الله وتمييزه بين الحق والباطل.
إن الطبع على القلوب كما يمكنه أن يكون عقاباً إلهيّاً للمعتدين، يمكن أن يكون أثراً من آثار الاستمرار في الاعتداء، والمراد من الاعتداء هنا هو الاعتداء على الساحة الالهية والمعصية

واقتراف الذنوب ومعاداة الرسل.

إن جملة: (فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ) إشارة الى أن بعض الرسل جاءوا إلى أقوامهم فكذبوهم، ثم أرسل الله إليهم رسلا آخرين مع أدلة واضحة فما آمنوا كذلك، وذلك لأن عنادهم نسج حاجباً سميكاً على عقولهم فأصبحوا لا يفهمون شيئاً ولا يعقلون.

ويقو البعض: إن المراد من المكذبين في الآية قوم نوح الذين أُغرقوا بالطفوان، والمراد من القوم الذين لم يؤمنوا الأقوام التي جاءت بعد قوم نوح وقد سلكوا مسلك قوم نوح في الاعتداء على الرسل وتكذيبهم(١).

ويبدو هذا التفسير بعيداً لان لازمه اختلاف مرجع الضميرن في (كذّبوا) و(ليؤمنوا)، ولهذا فالافضل هو التفسير الأول.

ويحتمل ان يكون المراد هو: الاقوام التي جاءت بعد نوح والتي قد نُقِلت لها حقائق عن دعوة الانبياء السالفين فكذبوا تلك الحقائق، ثم جاءتهم رسل فكذبوهم كذلك، وعلى هذا فالتكذيب الاول يتعلق بما نُقِلَ وحُكِي لهم، والتكذيب الثاني يتعلق بالامور التي شاهدوها من الانبياء بأُم أعينهم(٢) ويبدو ان هذا التفسير مناسب، ولا يبعد الجمع بين التفسيرين.

---

١ – مجمع البيان الجزء ٥ الصفحة ١٢٥.

٢ – روح المعاني الجزء ١١ الصفحة ١٤٣.

* * *

١٣ ــ حجاب الرؤية السطحية وترك التدبر

١ ــ (وَيَدعُ الإنْسانُ بِالشَّرِّ دُعائَهُ بِالْخَيْرِ وَكانَ الإنْسانُ عَجُولا) (الاسراء / ١١)

٢ ــ (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ عَلى قُلُوب أَقْفالُها) (محمد / ٢٤)

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

اقفال القلوب الثقيلة:

في الآية الاولى يذكر الله احد اسباب الكفر وعدم الايمان بالله وهو عدم دراسة الامور، ويقول: انهم وسبب إضطرابهم وتسرعهم يتجهــون احيــاناً نحو الشر بشكل وكأنهم يتجهون نحو الخير والسعادة، ويتجهون نحو الهاوية بشكل وكأنــهم يتجهون نحو مكان آمن ويتجهون نحو الذل العار وكما لو كانوا يتجهون نحو طريق الفخر والعز.

اي انّ تفكيرهم السطحي وتركهم التدبر يجعل حجاباً على العقول يحول دون ادراكهم الصحيح، فيرون ــ لاجل ذلك ــ الشرّ خيراً والشقاء سعادة، والضلال صراطاً مستقيماً.

وقد جاء في تفســير الميزان: ان المراد بكــون الانسان عجولا هو : انــه لا

يأخذ بالاناة اذا اراد شيئاً حتى يتروى ويتفكر في جهات صلاحه وفساده حتى يتبين له وجه الخير فيما يريده من الأمر فيطلبه ويسعى اليه، بل يستعمل هواه في طلبه بمجرد تعلقه به فربما كان شراً فتضرر به، لكن جنس الانسان عجول لا يفرق بين الخير والشر بسبب عجلته، بل يطل كلما ما لاح له ويسأل كل ما بدا له فتعلق به هواه من غير تمييز بين الخير والشر(١).

اما المراد من «يَدْعُ» هنا؟ فيقول البعض: انه الطلب سواء كان في صورة دعاء او طلب من الله او كان بصورة طلب عملي اي، السعي لتحصيل الشيء وبذل اجهود لِنَيْلِهِ(٢).

الا ان المستفاد من بعض التفاسير ان المراد هو الدعاء اللفظي والطلب من الله، وهذا قيل في شأن زول الآية: انها نزلت في حق الــ (نضر بن الحارث) من مشركي العرب المعروفين حين قال: (اَللّهُمَّ اِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطَرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ)، فاستجاب الله هذا الدعاء وأهلكه(٣).

وقد ذكـــر المـــرحوم الطبرسي كـــلا التفسيرين فـــي مجمـــع البيان ويظهر ان معنى الآية يسع كلا التفسيرين.

وقد جـــاء في حديث للامام الصادق(عليه السلام) في تفسيره لهذه الآية قال فيه: (وَاعْرِفْ طَرِيْقَ نَجـــاتِك، كَيْـــلا تَدْعُوا اللهَ بِشَـــيء عَســـى فِيْهِ هَلاكُـــكَ وَأَنْتَ تَظنُّ أَنَّ فِيْهِ نَجـــاتَكَ، قـــالَ اللهُ تَعـــالـــى (وَيَدْعُ الإِنْســـانُ بِالشَرِّ دُعائَهُ بِالْخَيْرِ وَكـــانَ الإِنْســـانُ عَجُولا)(٤).

وقد جاء في حديث آخر ان آدم نصح اولاده وقال لهم : (كُـــلُّ عَمَل تُريدُونَ

---

١ – الميزان الجزء ١٣ الصفحة ٤٩ (ملخص).

٢ – نفس المصدر السابق الصفحة ٥٠، وبما ان الباء في «بالخير وبالشر» باء صلة فيكون معنى الجملة هكذا: «يدعو الشر كدعاءه الخير».

٣ – تفسير القرطبي الجزء ٦ الصفحة ٣٨٤١، والفخر الرازي الجزء ٢٠ الصفحة ١٦٢.

٤ – نور الثقلين الجزء ٣ الصفحة ١٤١.

أَنْ تَعْمَلُوا فَقِفُـــوا لَهُ ســـاعةً فَـــإِنِّي لَوْ وَقَفْـــتُ ساعةً لَمْ يَكُنْ أصـــابَنِي ما أَصابَنِي)(١).

ومن هذا الباب اطلق العرب عبارة «ام الندامات» اسماً للعجلة كما قيل: ان العجلة من الشيطان الاّ في ستة موارد: اداء الصلاة في وقتها، دفن الميت، تزويج البنت الباكر عند بلوغها، اداء الدين عند حلول وقته، اطعام الضيف عندما يحل، والتوبة عند اقتراف الذنب.

اما المراد من «الانسان» في عبارة «وكان الانسان عجولا» وامثالها في القرآن الكريم والتي تعبر عن نقاط الضعف المظيرة في طبيعة الانسان، فهو الانسان الذي لم يتخلق باخلا الله ولم يتربَّ على اساس التربية الرسالية والدينية ــ كما ذكرنا في التفسير الامثل ــ، لا الانسان المهذب.

* * *

وتحـــدثت الآية الثانيـــة عن فريق مـــن المنافقين المعاندين حيث أُشير إليهم في الآيات السابقة بصفة عمي القلوب، واذا تسلموا زمام الحكم ما رحموا صغيراً ولا كبيراً، واعتبرهم الله الملعونين والمطرودين من رحمته، وقال فيهم هنا: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) لا قفل واحد بل أقفال، فكيف يمكنهم إدراك الحقائق؟

هناك بـــحيث المفســـرين في ان « أم » متصـــلة أو منفصـــلة(٢)، فـــاذا كانت متصلة يكون المعنى هكذا: أفلا يتدبرون القرآن أو أن هناك اقفالا على قلوبهم؟ وأما اذا كانت منفصلة فالمعنى هكذا: أفلا يتدبرون القرآن؟ كلا، بل إن اقفالا على

١ – روح البيان الجزء ٥ الصفحة ١٣٧.
٢ – بنقل الآلوسي في روح المعاني عن سيبويه انها متصلة، بينما ينقل عن ابو حيان وفريق آخر انها منفصلة (الجزء ٢٦ الصفحة ٦٧).

قلوبهم.
وعلى كلا المعنيين فالآية دليل على وجود تضاد بين « التدبر » و«الحجاب على القلوب»، ويمكن القول: ان الآية تشير الى حجاب ترك التدبر.
وقد جاء في تفسير (في ظلال القرآن):
تدبر القرآن طبقاً لهذه الآية يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ، ويسكب نور المعرفة على القلوب، ويحرك المشاعر، ويستجيش القلوب، ويخلص الضمير ويجدد الروح ويجعلها اكثر صفاءاً واشراقاً(١).
وقد جاء بعض المفسرين بدليلين لذكر القلوب نكرة في الآية، الاول: انها ذكرت نكرة لبيان حال قلوبِهم المروّع، وانها قلوب مجهولة مليئة بالقساوة والظلمات.
الثاني: إن المراد هو بعض القلوب لا كلها، لأن بعضهم لم يصلوا الى تلك الدرجة من الظلمات بحيث تقفل قلوبهم وتتوقف عن إدراك الحقائق.
وذكر الاقفال بصيغة الجمع إشارة الى الحجب المختلفة التي تجعل على قلوبهم مثل حجاب النفاق والعناد والغرور وحب النفس وغيرها.
كما ينبغي الاشارة الى هذه النقطة وهي: إن بين «ترك التدبر» و«حجاب القلب» تأثيراً متبادلا، فكلٌ منهما يمكنه ان يكون علة للآخر في مرحلة ومعلولا له في مرحلة اخرى، فتارة ترك التدبر ينشأ عن ظلمات القلب، وتارة اخرى ظلمات القلب تنشأ عن ترك التدبر.
وننهي حديثنا هذا برواية عن الامام الباقر(عليه السلام) جاء فيها:
عن الباقر(عليه السلام) قال: قرّاء القرآن ثلاثة: رجل قرأ القرآن فاتخذه بضاعة واستدرّ به الملوك واستطال به على الناس، ورجل قرأ القرآن فحفظ حرفه وضيّع حدوده

١ – في ظلال القرآن الجزء ٧ الصفحة ٤٦٢.

واقامه اقامة القدح فلا كثّر الله هؤلاء من حملة القرآن، ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه فأسهر به ليله واظمأ به نهاره وقام به في ساجده وتجافى به عن فراشه فبأولئك يدفع الله العزيز الجبار البلاء وبأولئك يديل الله عزوجل من الاعداء وبأولئك ينزل الله عزوجل الغيث من السماء فوالله لهؤلاء في قرّاء القرآن اعز من الكبريت الاحمر(١).

* * *

١٤ ــ حجاب الارتداد

في البداية نصغي خاشعين للآية التالية:

(اِتَّخَذُوا اَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله اِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمُونَ * ذلِكَ بِاَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ) (المنافقون / ٢ ــ ٣)

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

إن هذه الآية ناظرة الى المنافقين، وبالرغم ان النفاق حجاب مستقل بحد ذاته إلاَّ ان القرآن هنا يذكر موضوعاً آخر في هذا المجال حيث يقول: (بِاَنَّهُمْ

---

١ - اصول الكافي الجزء ٢ الصفحة ٦٢٧ الحديث ١.

آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ).

يعتقد بعض المفسرين : ان الاشخاص المعنيين في الآية هم فريق آمنوا ظاهراً وضلوا كفاراً باطناً.

إلاّ ان ظاهر الآية يكشف عن أنهم في البداية آمنوا حقاً، ثم كفروا بعد ايمانهم، وكان كفرهم هذا متزامناً مع النفاق، لأن التعبير بـ «ثم» يدل على أن كفرهم حصل بعد الايمان لا انه كان متزامناً مع الايمان ليكون احدهما ظاهراً والاخر خفياً. وعلى هذا فالآية تتحدث عن حجاب الارتداد.

ولا عجب في أن يطبع الله على قلب من آمن وذاق طعم الايمان وحلاوته، وشاهد أنوار

الرسالة، ثم كفر كفراً تزامن مع النفاق.
إذا التبس الحق على شخص منذ البداية فعذره يمكن ان يكون وجيهاً، اما اذا ارتد عن الايمان بعد ما عرف الحق وآمن به، فهذا غالباً ما يكشف عن حالة العناد عند هذا الشخص، والله يسلب نعمة المعرفة عن اشخاص كهذا ويطبع على قلوبهم.
بالبطبع لا دليل لنا على أن كل المنافقين كانوا غير مؤمنين منذ البداية، بل إنَّ فريقاً منهم آمنوا في البداية حقاً ثم ارتدوا كما جاء ذلك في سورة التوبة الآية (٧٤): (وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسلامِهِمْ)، وهذا النفاق المتزامن مع العناد هو الذي يجعل حجاباً على القلوب.
ونؤكد تارة اخرى ان هذا الحديث لا يدل على الجبر اطلاقاً، لأن مقدمات هذا الحرمان أوجدها المنافقون بأنفسهم.

* * *

١٥ ــ حجاب الكذب والافتراء

[٣٤٩]

في البداية نصغي خاشعين للآيات التالية:
١ ــ (اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِيْنَ اُوتُوا نَصِيْباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ اِلى كِتابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيْقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ * ذلِكَ بِاَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النّارُ اِلاّ اَيّاماً مَعْدُودات وَغَرَّهُمْ فِي دينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ) (آل عمران / ٢٣ ــ ٢٤)
٢ ــ (وَلَقَدْ مَكَنّاهُمْ فِيما اِنْ مَكَّناكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَاَفْئِدةً فَما أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا اَبْصارُهُمْ
وَلا اَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْء اِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بآياتِ اللهِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (الاحقاف / ٢٦)

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

خُداع الكذب:

يقول بعض المفسرين في شأن نزول الآية الاولى:
ان رجلا وامرأة من اليهود زنَيا، وكانا ذوي شرف، وكان في كتابهم الرجم، فكرهوا رجمهما

لشرفهما، فرجعوا في امرهما الى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) رجاء ان يكون عنده رخصة في ترك الرجم فحكم الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) بالرجم فأنكروا ذلك فقال عليه الصلاة والسلام: بيني وبينكم التوراة فان فيها الرجم فمن أعلمكم؟

قالوا: عبدالله بن صوريا الفدكي، فأتوا به واحضروا التوراة، فلما أتى على آية الرجم وضع يده عليها، فقال ابن سلام الذي كان على ملة اليهود واسلم.

[٣٥٠]

قد جاوز موضعها يا رسول الله، فرفع كفه عنها فوجدوا آية الرجم، فأمر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) برجمهما فرجما، فغضبت اليهود لعنهم الله لذلك غضباً شديداً فأنزل الله تعالى هذه الآية(١).

يقول القرآن في هذا المجال: (اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِيْنَ اُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ اِلى كِتابِ الله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلّى فَرِيقٌ مِنهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ).

ثم يضيف : (ذلِكَ بِاَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النّارُ اِلاّ اَيّاماً مَعْدُودات وغَرَّهُمْ فِي دينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ).

«يفترون» من مادة «الافتراء» ومن أصل «فري» الذي يعني القطع وشق الجلد بهدف الاصلاح، إلاّ انه قد تستعمل في صيغة «الافراء» فتعني القطع بهدف الافساد، و«الافتراء» معناه واسع، أي القطع سواء كان بهدف الاصلاح أو الافساد، بالرغم من استعماله في أغلب الأحيان في مجال الافساد والتخريب، كما استعملت هذه المفردة في مجال الكذب والشرك والظلم(٢).

أما «غرّهم» فمن مادة «غرور» ومشتقة من «غُر» بمعنى ظاهر الشيء، ولهذا قيل للأثر الظاهر في جبين الحصان «غُرة»، كما تستخدم في القماش اذا طُوي بشكل حيث تظهر عليه آثار الطوي، كما تستعمل هذه المفردة بمعنى الخداع، وكأن الطرف المخدوع يُطوى كالقماش(٣).

أما «غَرُور» فيعني الشخص و الشي الذي يخدع الانسان، كما تطلق على الشيطان الخادع(٤).

وقد قيل في كيفية أن الكذب والافتراء يخدعان الانسان ويحجبان عنه المعرفة وما ذكر صاحب الميزان:

---

١ – تفسير الفخر الرازي الجزء ٧ الصفحة ٢٣٢.

٢ – مفردات الراغب مادة (فري).

٣ – مفردات الراغب مادة (غرور).

٤ – لسان العرب مادة (غرور).

«ان الانسان يجري في اعماله وافعاله على ما تحصل عنده من الاحوال او الملكات النفسانية والصور التي زينتها ونمقتها له نفسه دون الذي حصل له العلم به، كما ان المدمن على اسعمال المواد المخدرة ونحوها يستعملها وهو يعلم انها مضرّة غير لائقة بشأنه وذلك لان حالته وملكته النفسانية زيّنت له هذه الامور واضفت عليها نوعاً من الجاذبية بحيث لم تدع له مجالا للتفكر والاجتناب.

وبعبارة اخرى انهم كرروا الكذب ولـم يزالوا يكـررونه ويلقنـونه أنفسهم حتى اذعنوا به أي اطمأنوا وركنوا اليه بالتلقين الذي يؤثر أثر العلم كما بينه علماء النفس فصارت الفرية الباطلة بالتكرار والتلقين تغرهم في دينهم وتمنعهم عن التسليم لله والخضوع للحق الذي أنزله في كتابه(١).

إن هذا مجربٌ، فتارة يتفوه الانسان بحديث كذب ويعلم أنه كذب وافتراء، وعلـى ضوءِ اعـادة الحـديث يقع في شك منه، ثـم يعيده مـرات اخـرى فيصدق به، حتى يبلغ درجة الاعتقاد بالرغم من عدم واقعيته، فيصير حجاباً أمام رؤيته العقلية السليمة.

وعلى هذه فلا مـجال للقول بان الكـذابين هم فريق من اليهود ان المخدوعين يمثلون فريقاً آخر.

* * *

وقد أشارت الآية الثانية الى قوم عاد، وهم قوم ذو قدرة، كانـوا يـعيشون في الاحـقاف (جنوب أو شمال الجزيرة العربية)، وابتلوا بالـريح العاصف إثر تكذيبهم لرسولهم «هود» وإثر ظلمهم وفسادهم في الارض.

فالآيـة تقول: (وَلَقَدْ مَكَّنـاهُمْ فِيمـا اِنْ مَكَّنـاكُمْ فِيْهِ وَجَعَلْنـا لَهُمْ سَمْعاً

---

١ – تفسير الميزان الجزء ٣ الصفحة ١٢٥.

وَأَبْصاراً ... وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

إن الآيـة تـؤكد أن تكذيبهم المتـوالي لآيات الله سبَّب سلب إدراكهم ومعرفتهم، فابصارهم ترى وآذانهم تسمع وأفكارهم تعقل ظاهراً، إلاّ ان الستار الحاجب حال دون استعانتهم بوسائل المعرفة هذه فابتلوا بعذاب الله.

«يجحدون» من مادة «جحود» ويعني في الأصل نفي شيء تيقن الانسان من وجوده أو اثبات

شيء يؤمن الانسان بعدمه، وبتعبير آخر: الجحود يعني انكار الواقعيات عمداً وعن معرفة(١).
إن التجربة أثبتت ان الانسان اذا ما استمر في انكار الواقعيات، فستصبح القطعيات عنده ــ تدريجياً ــ شكاً، واذا استمر الانكار أكثر فان قدرته على التمييز تتبدل بحيث يرى الحق باطلا والباطل حقاً.
وهناك مناشيء وعلل لهذا العمل (أي انكار الواقعيات مع العلم والمعرفة)، فتارة ينشأ عن العناد، وتارة اخرى عن التعصب، وتارة عن الكبر والغرور، وتارة يقدم الانسان عليه حفاظاً على مصالحه المادية التي تتعرض للخطر إذا ما كشف عن الحقائق، وتارة لأجل شهوات اخرى، وعلى أي حال فان لهذا العمل مردوداً سلبياً، وهو حدوث حجاب على العقل والفطرة فتنقلبُ قدرة التمييز عند الانسان رأساً على عقب.

* * *

١٦ ــ حجاب الظن السميك

إن اتباع الظنون الباطلة يغير العقل تدريجياً ويحرفه عن جادة المعارف

---

١ – مفردات الراغب مادة (جحد)، كما يقول الجوهري: إن الجحود هو الانكار مع العلم. كما ذكر ذلك صاحب مجمع البحرين في مادة (جحد).

الأصيلة، ويجعل حجاباً أمام عينيه واذنيه.
في البداية نصغي معاً خاشعين للآية التالية:
(وَحَسِبُوا اَلاّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيْرٌ مِنْهُم وَاللهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ) (المائدة / ٧١)

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

إن هذه الآية ناظرة الى فريق من اليهود الذين عاهدوا الله على أن يتبعوا دعوات الأنبياء ويخضعوا لها، إلاّ أنهم كلما جاءهم رسول يأمرهم بما يخالف أهواءهم النفسية نهضوا ضده أو قتلوه.

ثـــم تـــضيف الآية: إنـــهم حسبوا أن لا تكون فتنة ولا عذاب، وهذا ظن باطل نشأ عن حب الدنيا والكبر والغرور، ظن باطل تدع اليه الشياطين والاهواء النفسية، وهذا الظن هو الذي ألقى بحجابه على أفئدتهم وأبصارهم وسمعهم فحال دون أن يعقـــلوا شيئـــاً، فلـــم تعد ابصـــارهم تدرك الآثار المتبقيـــة من المصير المؤلم للاقوام السالفة ولم تعد آذانهم تمتلك قدرة سماع قدرة سمـــاع ما يُنقل عنهم، وبهذا فقدوا هاتين الوسيلتين المهمتين للمعـــرفة ــ السمع والبصر ــ من الناحية العملية وظنوا انهم في امان من عذاب الله. وقد حصل لهم هذا الظن من خِلال السير في الأرض ودراسة التاريخ والأقوام السالفة، فما سمعوا عن تلك الاقوام بآذانهم، ولا شاهدوا بأعينهم، بل ان ابصارهم وآذانهم وأفئدتهم عاطلة عن العمل فحسبوا أن لا عذاب لهم. إلاّ أنه بعد انقضاء وطر من الزمن أدركوا خطأهم والتزموا طريق التوبة، وقد

[٣٥٤]

وسعتهم رحمة الله فقبل توبتهم.

ومرة اخرى خدعتهم ظنونهم الباطلة فظنوا انهم شعب الله المختار في أرضه (بل أبناء الله)، فأسدلت ستائر العمى والصم والجهل عليهم وطُردوا من رحمة الله تارة اخرى.

إن هذه الآية تبين بوضوح ان الظنون الباطلة وخاصة ظن الأمان من عذاب الله يجعل غشاوة على الباصر والمسع ويعطلهما عن العمل.

وعلى هذا، فالمراد من «فعموا وصموا» هو أن أعينهم ما بصرت آيات الله والآثار الباقية من الاقوام السالفة، وان آذانهم ما صغت لمواعظ الرسل.

وبديهي ان اتباع الظن الباطل لمرة أو مرات لا يترك هذا المردد السلبي في الانسان، بل الاستمرار عليه هو السبب في ذلك.

وهناك أقوال في سبب عطف الجملة الثانية على الاولى بـــ «ثم» التي تدل على الفاصل الزمني.

فقال البعض : إن استعمالها للاشـــارة الـــى مصيـــرين مختـــلفين لليهـــود، أحدهما عندما هاجمهم أهل بابـــل، والثـــاني عندما هاجمهم الايرانيون والروميون وأسقطوا حكومتهم(١)، وقد جاء شرح ذلك في التفسير الأمثل في بداية سورة بني اسرائيل.

وقال البـــعض : إن الجملة الاولى اشارة الى عهد زكـــريا ويحيـــى وعيسى حيث خالفهم اليهود آنذاك، والعبارة الثانية اشارة الى عهد الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) حيث أنكروا نبوته ورسالته(٢).

وقال البعض: إن العبارة الاولى تبين ان الله لعنهم وطردهم من رحمته وأعمـــاهم وأصمهم لأجل ظنهم الباطل من أنهم شعب الله المختار، وقد شملتهم

١ – المنار الجزء ٦ الصفحة ٤٨١.
٢ – وقد ذكر هذا التفسير كاحتمال في تفسير الفخر الرازي الجزء ١٢ الصفحة ٥١٦ وكذا في روح المعاني الجزء ٦ الصفحة ١٨٤.

[٣٥٥]

رحمة الله بعد ذلك فتاب عليهم ورفع عن قلوبهم ذلك الظن الباطل، فأبصرهم وأسمعهم تارة اخرى كي يلتفتوا الى حقيقة وهي: عدم وجود فرق بينهم وبين غيرهم إلاَّ بالتقوى.
إلاّ أن حالة الوعي واليقظة هذه لم تستمر عندهم، وتورط بعضهم بنفس الحسبان الخاطيء القائم على اساس التفرقة العرقية تارة اخرى، فأعماهم وأصمهم الله ثانياً(١).
والجمع بين هذه التفاسير ليس بعيداً، ونتيجتها جميعاً واحدة وهي: إن الظن الباطل (كظن اليهود انهم شعب الله المختار) يمنع الانسان تدريجياً عن الادراك والفهم ويحرفه عن جادة الصواب، واذا كان هذا الظن في بدايته فيقظة العقل محتملة، ورجوعه عن هذا الحسبان ممكن، اما اذا تفاقمت الظنون وتأصلت في ذاته فيصبح الرجوع عنها أمراً غير ممكن.

* * *

١ – الميزان الجزء ٦ الصفحة ٧١.

[٣٥٦]

[٣٥٧]

القسم الثالث:

الحجب الخارجية:

[٣٥٨]

[٣٥٩]

الحُجُب الخارجية

١٧ ــ حجاب القادة الضالين والفسدة

تمهيد:

إن الحجب الخارجية هي الحجب التي تكمن وراء أعمال الانسان وصفاته وتؤثر على العقل والادراك وملكة التمييز وتحول دون معرفة الحقائق، وهي عديدة تشكل مساحة واسعة، وقد أشار اليها القرآن بأساليب متعددة وجميلة.

١ ــ (وَقالُوا رَبَّنا إنّا اَطَعْنا سادَتَنا وكُبَرائَنا فَاَظَلُّونا السَّبيلا * رَبَّنا آتِهِم ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً)

(الاحزاب / ٦٧ ــ ٦٨)

٢ ــ (وَلَوْ تَرَى اَذَ الظّالِمُونَ مَوقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بعْضُهُمْ إلى بَعْض الْقَوْلَ يَقُولُ اَلَّذِيْنَ اسْتُضْعِفُوا لِلّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا اَنْتُمْ لَكُنّا مُؤمِنِينَ * قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِيْنَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ اِذْ جائَكُم بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ)

(سبأ / ٣١ ــ ٣٢)

٣ ــ (قالَ ادْخُلُوا فِي اُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإنْسِ فِي النّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتّى إذا اِدّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ اُخْراهُمْ لِاُولاهُمْ رَبَّنا هَؤلاءِ اَضَلُّونا فَآتِهِم عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ)

(الاعراف / ٣٨)

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

شجار اصحاب النار:

إن الآية الاولى تبيّن حال فريق من الكفار عندما يرون نتيجة أعمالهم عند الله، فيقولون: (رَبَّنا إنّا اَطَعْنا سادَتَنا وكُبَرائَنا فَاَظَلُّونا السَّبيلا)، فما كنا نُبتَلى بهذا المصير لولاهم، ثم يقولون: (رَبَّنا آتِهِم ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ) (عذاباً لكفرهم وعذاباً لأنهم أضلونا) (وَالْعَنْهُمْ لَعْناً

كَبِيراً).

فهم لا يــريدون سوى تبرير أعمالهم بكلامهم هذا، صــحيح ان لــرؤسائهم دوراً في انحرافهم، لكن هذا الأمر لا يسلب عنهم المسؤولية تجاه أعمالهم.

وصحيح أن وسوسة القادة الفسدة والزعماء الضالين والمضلين جعلت حجاباً على عقولهم وأفكارهم فحال دون تفكيرهم الصحيح، إلاّ أن مقدمات هذا الأمر هم هيأوها بأنفسهم لأنهم سلموا أنفسهم عشوائياً الى هؤلاء من دون احراز اهليتهم للقيادة.

وهنــاك خلاف بين المفســرين في الفــرق بين ســادتا وكبرائنا، أو بالأحرى هل هناك فرق بينهما أم لا؟

يعتقد البعض ان «سادتنا» إشارة الى ملوك وسلاطين المدن والدول،

و«كبرائنا» اشارة الى الرؤساء المحليين، حيث عُدت طاعة السادة مكان طاعة الله، وطاعة الكبراء مكان طاعة الرسول، فقدرة وصلاحية الفريق الأول أكثر من الفريق الثاني ولهذا قُدِّم.

ويعتقد البعض ان السادة اشار الى الملوك واصحاب القدرة، والكبراء اشارة الى كبار السن، ولهذا يتبعهم بعض الناس.

ويعتقد آخرون ان كليهما بمعنى واحد وانهما قد وردا للتأكيد(١).

ويبدو أن المعنى الأخير أنسب من جميع المعاني السابقة.

وتجدر الاشارة الى أن «سادة» جمع «سيد» والسيد يعني رئيس السواد (اي الجمع الغفير من الناس، وقد أُطلق عليه سواداً من باب انه يبدو أسود اللون من بعيد) ثم اطلقت هذه المفردة على كل رجل كبير.

* * *

وقد تحدثت الآية الثانية عن الكفار الظــالمين الــذين اذا مــا رأوا نتيجة أعمالهم في الآخرة سعى كلٌّ منهم لإلقاء ذنبه على الآخر، فيقول حينها المستضعفون (أي المغفّلون) للمستكبرين (أي الظلمة وأصحاب السلطة الذين أضلوا الآخرين بأفكارهم الشيطانية): لولا وساوسكم المغرية والشيطانية لَــكُنّا في صفوف المؤمنين، لقد غسلتم أدمغتنا، وأتبعناكم جهلا، وجعــلتمونا آلة بأيديكم لتحقيق مآربكم الشيطانية، وقد فهمنا الآن أن كنّا على خطأ.

بالطبع لم يخرس المستكبرون عندها، بل يجيبون: (أَنحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ اِذ جائَكُم) الرسل بالبينات والحجج الكافية؟ إنكم مخطئون ونحن غير مسؤولين عن ضلالتكم، (بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ) ومذنبين لأنكم تركتم ما دعتكم إليه

١ – راجع تفسير روح المعاني الجزء ٢٢ الصفحة ٨٧ والميزان الجزء ١٦ الصفحة ٣٦٩ والفخر الرازي الجزء ٢٥ الصفحة ٢٣٢.

الرسل واتبعتم الأقاويل الباطلة بالرغم من إرادتكم واختياركم.

* * *

وقد أشارت الآية الثالثة الى شجار «القادة» و«الأتباع» الضالين في جهنم، فكلما دخلت امة لعنت الاخرى واعتبرتها هي المسؤولة عن شقاءها وعذابها في الآخرة، ويقول الأتباع يومذاك: (رَبَّنا هَؤُلاءِ اَضَلُّونا فَآتِهِم عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النّارِ)عذاباً لأنهم ضالّون وعذاباً لأنهم أضلونا وأغوونا.

فيجيبهم الله: (لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ).

إن مضاعفة العذاب لقادة الباطل أمر متوقع وليس عجيباً، إلاّ ان مضاعفة العذاب لأتباعهم أمر قد يبدو غريباً للوهلة الاولى، لكنا إذا دققنا في الأمر نجد ضرورة مضاعفة العذاب لهم، عذاب: لأجل أنهم ضالون، وعذاب: لأجل اعانتهم أئمة الكفر والذود عنهم والقتال دونهم، كما جاء ذلك في حديث للامام الصادق(عليه السلام)عندما جاءه أحد صحابته ملعناً توبَتُه عما قدمة لبني أمية من خدمات، يقول فيه:

(لَوْلا أَنَّ بَنِي اُميَّةَ وَجَدُوا مَنْ يَكْتُبُ لَهُم ويُجْبِي لَهُمْ الفِيءَ وَيُقاتِلُ عَنْهُمْ وَيَشْهَدُ جَماعَتَهُمْ لَما سَلَبُونا حَقَّنا)(١).

* * *

١ – البحار الجزء ٧٢ (٧٥) الصفحة ٣٧٥، وسفينة البحار الجزء ٢ الصفحة ١٠٧ مادة «ظلمة».

إيضاحات:

١ ــ «المستضعفون» و«المستكبرون» في القرآن المجيد:

تحدث القرآن المجيد مرات عديدة عن المستكبرين « والمستضعفين » وهو

موضوع مهم وجدير بالانتباه ويمكن ان يشكل احد المباحث المستقلة في التفسير الموضوعي، الا انه ينبغي هنا الاشارة اليه بصورة عابرة مع بيان الآيات التي وردت في هذا البحث.

يقول الراغب في مفرداته: ان الكبر والتكبر والاستكبار لها معان متقاربة، ثم يضيف: ان للاستكبار معنيين احدهما: أن يتحرّى الانسان ويطلب ان يصير كبيراً وذلك متى كان على ما يجب وفي المكان الذي يجب وفي الوقت الذي يجب والثاني ان يتشبّه فيظهر من نفسه ما ليس له وهذا هو المذموم وعلى هذا ما ورد في في القُرآن. وهو ما قال تعالى:

(أَبَى وَاسْتَكْبَرَ) (البقرة / ٣٤).

ثم يضيف الراغب: قابلَ المستكبرين بالضعفاء تنبيهاً الى ان استكبارهم كان بما لهم من القوة من البدن والمال.(١)

ان الاستضعاف يقابل الاسكتبار وهو يعني طلب الضعف وقلة الحيلة، لكن بما ان هذه المادة غالباً ما تستعمل في القرآن بصفة (فعل مبني للمجهول) او (اسم مفعول)، فتعني الضعف الذي فرض عليهم من قبل المستكبرين.

وقد استعملت في القرآن بصيغة الفعل المبني للمعلوم كما جاء ذلك في فرعون الذي استضعف بني اسرائيل:

(اِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُم)

(القصص / ٤)

كما ينبغي ذكر هذه النقطة وهي: ان القرآن استعمل مفردة (مُتضعَف) بمعنيين: الاول المظلومون في الارض، وهم المشمولون بألطاف الله. كما جاء ذلك بالنسبة الى مستشعفي بني اسرائيل حيث قال الله فيهم:

---

١ – مفردات الراغب مادة (كبر).

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارِثِينَ)

(القصص / ٥)

والمعنى الثاني وهو المستعمل غالباً في القرآن المجيد: الضعفاء فكرياً بسبب جهلهم وتقليدهم الاعمى وتعصبهم، فيتبعون الظلمة والقادة الضالين عشوائياً. وهؤلاء هم الذين اشارت الآيات لالمذكورة في اول البحث الى شجارهم مع المستكبرين في يوم القيامة وصرحت انهم يستحقثون العذاب المضاعف كالمستكبرين: عذاباً لأجل انهم ضالون وعذاباً لاجل انهم ساهموا في تثبيت

اسس حكومة الجبارين.

* * *

٢ ــ دور القادة في الروايات الاسلامية:

لقد جاء في حديث للامام أمير المؤمنين(عليه السلام): «الناس بامرائهم أشبه منهم بآبائهم»(١).

إن هذا الشبه يمكن أن يكون من حيث ان فريقاً من الناس يتبعون الامراء ويقتدون بهم جهلا وغفلة ويجعلون قلوبهم ودينهم رهناً لاشارات هؤلاء الامراء وايعازاتهم، ولهذا اشتهر الحديث «الناس على دين ملوكهم».

إن هؤلاء الامراء في رأي بعض الناس أبطال وقدوات نموذجية واُسوات حسنة وأرفع شأناً من أن يُنتقدوا، وقد يقلّد البعض أنفسهم مناصب مقدسة فيغرروا ببعض الجهلة والعوام، ويجعلوا حجاباً أمام أفكارهم وعقولهم.

ومن المتعارف ان هناك فريقاً يعتبر «القدرة» دليلا على «الحقانية»، ويعتبر

---

١ – البحار الجزء ٧٥ الصفحة ٤٦، كتاب الروضة كلمات علي(عليه السلام) الحديث ٥٧.

المنتصر هو الحق فرداً كان او جماعة، وهذا الاسلوب من التفكير جعلهم فريسة للكثير من الاخطاء والانحرافات في حساباتهم الاجتماعية.

إن الملوك والقادة الجبارين أينما دخلوا أفسدوا، وذلك لاستغلال الضعف والعجر الفكري لدى بعض الناس، كما جاء ذلك في القرآن على لسان ملكة سبأ: (قَالَتْ اِنَّ الْمُلُوْكَ اِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ اَهْلِها اَذِلَّةً وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ)(النمل / ٣٤).

وبالرغم من ان هذا الحديث تفوه به ملك ظالم، إلاّ ان ذكره في القرآن من دون أي نقد من جهة، وصدوره من شخصية ظالمة وخبيرة بما عليه الظّلَمَة من أمثالها من جهة اُخرى دليل على واقعية هذا الحديث الشبيه بالاعتراف.

ولهذا أردت ملكةُ سبأ أن تختبر سليمان هل هو ملك أو نبي حقاً؟ فأرسلت اليه هدايا كي تعرف ردّ فعله تجاهها، وذلك لانها تعرف ان أفكار الملوك وقلوبهم رهن الهدايا والذهب والفضة والشأن والمقام، بينما الأنبياء لا يهمهم شيءٌ سوى صلاح الاُمم.

* * *

١٨ ــ حجاب الأصدقاء الضالين

(وَيومَ يَعَضُّ الظّــالِمُ عَلَــى يَدَيْهِ يَقُولُ يــا لَيْتَنِــي اتَّخَــذْتُ مَــعَ الرَّسُــولِ سَبِيــلا * يــا وَيْلَتــى لَيْتَنِــي لَــمْ اَتَّخِــذْ فُلاناً خَلِيــلا * لَقَدْ أَضَلَّنِــي عَــنِ الذِّكْرِ بَعْــدَ اِذْ جائَنِــي وَكــانَ الشَّيْطــانُ لِلإِنْســانِ خَذُولا) (الفرقان / ٢٧ ــ ٢٩)

* * *

[٣٦٦]

جمع الآيات وتفسيرها:

إن هذه الآيات تشرح احدى لقطات يوم القيامة، وهي لحظات تأسف الظالمين وتأثرهم من أعمالهم الى درجة حيث يعضون على أيديه.

إن « يعضّ » من مادة « عضّ » ومعنــاها واضــح، والتعبيــر بــ (يعضّ) في العربية وكــذا في الفارسية كناية عن شدة التأسف والانزجار، وقد شوهد أنّ كثيراً من الناس إذا ما واجهوا مصيبة عظيمة ناشئة عن ســوء عمــلهم عضّوا على أيديهم أو أصــابعهم أو أظهر أكفّهم، وكأنهم يريدون عقاب أيديهم لأجل قيامها بهذا العمل.

إلاّ ان المصيبة اذا لم تكن شديدة جداً اكتفوا بعضّ أناملهم كما قال القرآن حاكياً حال الكفار في سورة آل عمران الآية (١١٩): (وَاِذا خَلَوا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ)، أو اكتفوا بعضّ ظهر احدى اليدين، اما ذا كانت المصيبة شديدة جداً فتارة يعضّون أيديهم اليسرى واخرى أيديهم الميني، والذي جاء في الآية الكريمة هو «يَدَيْه» وهذا يكشف عن ان المصيبة عظيمة للغاية يوم القيامة، وغالباً ما يقترن العضّ بالتفوه بجمل وأقاويل مفهومها التوبيخ للنفس، ويتحد حينها الكلام مع السلوك في ابراز التعصب.

ويقولون عندها: (لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا * يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ اَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ اِذْ جائَنِي) إلاّ ان هذا الخليل ما سمح لهم باليقظة.

وعلى هذا، فهم يعدّون الخليل الضال هو السبب الاساسي لشقاءهم، حيث جعل حجاباً أمام أفكارهم وعقولهم حال دون رؤيتهم لجمال الحق.

وهنا أقوال في المراد من «فلان»:

احتمل البعض انه الشيطان، حيث ينتخبه الانسان ــ أحياناً خليلا، وذلكبقرينة

قوله في ذيل الآية: (وَكانَ الشَّيْطانُ لِلإِنْسانِ خَذُولا).

ويقــول البعض: إن المــراد منــه هو نــفس الشخص الذي نــزلت في شــأنه الآية، أي «عقبة» وهو أحد الكفار المعروفين، أَسْلَمَ وارتد عن الاسلام وتخلى عن الرسول لأجل خليله «أبي»، وقتل في معركة بدر، بينما قُتِل أبي في معركة أُحد(١).

لكن الظاهر أن مفهوم الآيــة ــ كما يقــول البعض ــ كــلّي شامل لــجميع الأصدقاء الضالين والموسوسين، وانّ شــأن النزول لا يُخصّصُ الاية ابداً، خصوصاً وان لمفردة «الشيطان» معنى واسعاً يشمل شياطين الجن والانس، كما ان ذكر كلمة «فلان» وبصيغة النكرة قرينة واضحة على اطلاق المفهوم(٢).

وقد قيل في تفسير «شركاء المشركين» الذين ذُكروا في الآية (١٣٧) من سورة الانعام: (وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِير مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكائُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِيْنَهُمْ)، انهم المتولون لمعابد الأصنام، حيث كانوا يغوون الناس ويغرونهم لتضحية أولادهم للاصنام، وبهذا التبس عليهم الحق، وأُلقي حجاب على عقولهم وأفكارهم.

وعلى هذا التفسير، فانّ الآية تُعدُّ شاهداً واضحاً على بحثنا أي ان الأصدقاء المضلين يشكلون حجاباً للعقل يمنعه عن المعرفة.

* * *

إيضاحات:

دور الأصدقاء في طريقة التفكير:

---

١ – تفسير مجمع البيان (ذيل نفس الآية) ويقول البعض: إن «أبي» الانسان الوحيد الذي قتله الرسول بيده طيلة عمره الشريف (تفسير روح البيان الجزء ٦ الصفحة ٢٠٥).

٢ – تفسير في ظلال القرآن الجزء ٦ الصفحة ١٥٦.

يشاهد في الروايات الاســلامية تعــابير كثيــرة في هذا المجــال، تكشف عن ان الاصدقاء المنحرفين والمستشارين الضالين يمكنهم سرقة فكر الانســان وتغيير موازين عقله وإغلاق طريق الحق عليه، ونذكر هنا نماذج من تلك الروايات:

١ ــ نصح الامام علي(عليه السلام) ابنه الحسن يوماً قائلا له:

« يا بُني إيــاك ومصــادقة الأحمــق فانــه يــريد أن ينفعك فيضــرك ... وإيــاك ومصادقة الكذاب فــانه كالسراب يُقرّبُ عليــك البعيد ويُبعِد عليك القريب»(١).

٢ ــ وقد جاء في عهد الامام علي(عليه السلام) لمالك الاشتر حول المستشارين:

«ولا تُــدْخلن في مشورتــك بخيــلاً يعدل بــك عــن الفضل وَيعِدك الفقر ولا جباناً يُضعفك عن المور ولا حريصاً يزين لك الشرَه بالجور»(٢).

ويستفاد من التعبير الاخير ان المستشارين المنحرفين يمكنهم التأثير في فكر الانسان ويحولون دون الادراك والمعرفة.

٣ ــ وقد جاء في حديث آخر لنفس الامام:

«مجالسة الأشرار تُورَثُ سوء الظن بالأخيار»(٣).

٤ ــ وقد جاء في حديث للرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم):

«المرءُ على دين خليله وقرينه»(٤).

وبهذا يتضح تأثير الصديق الصالح أو غير الصالح على كيفية المعرفة واسلوب التفكير.

* * *

---

١ – نهج البلاغة (الكلمات القصار) الجملة ٣٨.

٢ – نهج البلاغة الرسالة ٥٣.

٣ – سفينة البحار الجزء ١ الصفحة ١٦٨.

٤ – اصول الكافي الجزء ٢ الصفحة ٣٧٥ «باب مجالسة أهل المعاصي» الحديث ٣.

١٩ ــ حجاب الاعلام والمحيط

في البداية نصغي خاشعين للآيات التالية:

١ ــ (قــالَ فَــإِنّــا قَــدْ فَتَنّــا قَــومَــكَ مِــنْ بَعْــدِكَ فَأَضَلَّهُــمُ السّــامِرِيُّ ... فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلا جَسَــداً لَــهُ خُوارٌ فَقَــالُــوا هــذا إِلهُــكُمْ وَإِلــهُ مُوسَي فَنَسِيَ) (طه / ٨٥ ــ ٨٨)

٢ ــ (فَخَرَجَ عَلَى قَومِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَيــاةَ الدُّنْيــا يــا لَيْتَ لَنــا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيم) (القصص / ٧٩)

٣ ــ (فَــلَمّا أَلْقَــوا سَحَرُوا أَعْيُــنَ النّــاسِ وَاسْتَــرْهَبُــوهُمْ وَجــاؤا بِسِــحْرٍ عَــظِيم)

(الاعراف / ١١٦)

٤ ــ (وَقــالَت طــائِفَةٌ مِنْ أهْلِ الْكِتــابِ آمِنُوا بِالَّذِي اُنْزِلَ عَلَــى الَّذِينَ آمنــوا وَجْه النَّهــارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (آل عمران / ٧٢)

٥ ــ (أَمْ اَنــا خَيْــرٌ مِنْ هــذا الَّذِىْ هُوَ مَهــينٌ وَلا يَكــادُ يُبِينُ * فَلَــوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْــهِ أسورَةٌ مِنْ ذَهَب أَوْ جــاءَ مَعَهُ الْمَــلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَــاسْتَخَفَّ قَومَــهُ فَأَطــاعُوهُ اِنَّهُم كــانُوا قَوْاً فــاسِقِينَ) (الزخرف / ٥٢ ــ ٥٤)

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

[٣٧٠]

الإعلام المسموم:

إن الآيــة الاولى أشارت الى قصة السامري طالب الشأن والمقام، الــذي استغل غيبة موسى(عليه السلام) اثناء ذهابه الى طور سيناء (للقاء ربه) لمدة اربعين يوماً، فجمع ذهب وحُلي بني اسرائيل وصنع منهما صنماً في صورة عجل! ويظهر انه وضعه باتجاه الريح بحيث يُخرج صوتاً رُغاءَ البقرة عند هبوب الرياح، وقد عبر القرآن عن هذا الصوت بــ «خوار» أي صوت البقرة البطيء.

إنــه انتهــز الفرصة بأُسلوب خاص، حيث قام بعمله هذا بعد مضي خمس وثلاثين يوماً من غيبة موسى، أي عندما أخذت أنوار التبليغ التــوحيدي تتضاءل في قــلوب بني اسرائيل، حيث كان المفــروض اَنْ يَــرجِعَ موسى من طور سيناء بعد ثلاثين يوماً، إلاّ ان الله اخّر ميعاده لامتحان بني اسرائيل فــاتمهن أربعين ويوماً.

يقول القرآن في هذا المجال: (قــالَ فَاِنّــا قَدْ فَتَنّــا قَومَكَ مِنْ بَعْدِكَ فَأَضَلَّهُمُ السّــامِرِيُّ).

وعلى أيّ حال فان انحراف بنــي اسرائيل (الــذين ينقل ان عددهم بلغ الستمائة ألف) عن طريق التوحيد الخالص الى الشرك والكفر وعبادة الأصنام ليس بالأمر الهين، إن الآيات التي جاءت في هذا المجال في سورة « طه » وغيرها من السور وكذا التواريخ والتفاسير تكشف عن أن السامري كان يستعين بأسلوب خاص من الاعلام والتبليغ لسرقة أفكار الناس وغسل أدمغتهم، بحيث جعل حجاباً على عقولهم، فظنوا (بسبب ذلك الحجاب) ان هذا العجل هو إله موسى؟!

والعجيب هنا أن الأمر بــلغ ببني اسرائيل الى حَدٍّ حيث رددوا ما قاله السامري: «هذا إله

موسى»، والتعبير بـــ «قالوا» شاهدٌ على هذا.

والتـــعبير الأخير دليل واضح على تأثير إعلام السامري الشديد، إنه كان

يستثمر إعلامه في الجهات التالية:

١ ــ انتهاز فرصة غيبة موسى.

٢ ــ تمديد غيبته الى أربعين يوماً.

٣ ــ الاستعانة بالذهب والحلي التي كانت ثمينة بالنسبة لبني اسرائيل.

٤ ــ استثمار الأرضية المساعدة والنمحرفة مثل طلبهم من موسى جعل صنم إلهاً عندما نجوا من الغرق في النيل، ومرّو بقوم يعبدون الأصنام: (قالُوا يا مُوسى إجْعَلْ لَنـــا إلهاً كَمـــا لَهُمْ آلِهَةٌ) (الاعراف / ١٣٨).

٥ ــ مكانته الاجتماعية عند بني اسرائيل واعتمادهم عليه الى حد حيث كانوا يولون له قدسية خاصة ويعدونه ربيب جبرئيل(١)!

٦ ــ حب ضعفاء الفكر لأله محسوس، وعدم التفاتهم الى أن الله بعيد عن التجسيم والصفات الجسمانيه، حيث بلغ بهم الأمر أن طلبوا من موسى رؤية الله جهرة كما عكس القرآن ذلك في الآية الخامسة والخمسين من سورة البقرة.

إن هـــذه الامور واموراً اخـــرى سببت انحراف بنـــي اسرائيل عن جادة التوحيد بالكامل، واغوائهم بتبليغ السامري واعلامه وفي النهاية عبادتهم للأصنام.

ولهذا، عندما رجـــع مـــوسى وعلم بهم، وبيّن القبح الشديد لعملهم هذا، استيقظوا من غفوتهم وصرخوا قائلين: ندمنا! ندمنا! واستعدوا لأجل قبـــول توبتهم أن يقتل بعضهم بعضاً كفارة لذنبهم العظيم (البقرة / ٥٤).

وعلى أيّ حـــال، فان الآية دليل واضح على حجاب الاعلام المضلل.

* * *

وتحدثت الآية الثانية عن «قارون» الغني والمعروف في بني اسرائيل الذي قام

---

١ – تفسير أبو الفتوح الرازي الجزء ٧ الصفحة ٤٨٢، وتفسير روح البيان الجزء ٥ الصفحة ٤١٤، ودائرة المعارف ــ دهخدا ــ مادة «ساري»، (بالفارسية).

يوماً باستعراض لثروته أمام بني اسرائيل.

لقد نُقِل في التواريخ قصص كثيرة في هذا المجال، فكتب بعض في هذا المجال: ظهر قارون مع فريق يُعدّ بأربعة آلاف رجل وامرأة من الخدم والحشم والجاريات، فالرجال على خيول أَصيلة، بألبسة حمراء، والجاريات على بغال بيض سروجها من ذهب، والجميع مزينون بالحلي والحلى والذهب والمجوهرات(١).

وقد قدر البعض عدد أفراد قارون بسبعين ألف، وإذا لم نعتبر هذه الارقام واقعية، فان تعبير القرآن: (فَخَرَجَ عَلَى قَومِهِ فِي زِينَتِهِ) يكشف عن عظمة تلك اللقطة، وقد يكون عمله هذا لأجل جعل شوكة في عين موسى(عليه السلام)، أو تثبيتاً لقدرته في بني اسرائيل، أو انه جنون عرض القدرة والثروة الذي يُبتَلى به كثير من المتمولين والاغنياء، وعلى أيّ حال، فان تلك اللقطات والاعلام المتزامن معها كان بدرجة من العظمة سلبت عقول الكثير من بني اسرائيل وَأَلْقَتْ بستار على أرواحهم حتى جعلتهم يتمنون اقتناء ثروتهُ وقدرته، ويعدونه سعيداً و«ذو حظ عظيم».

وبعد ما جاء ذلك اليوم الذي خسف الله الارض بقارون وثروته بسبب جرائمه وأعماله المشينة، وعلم الجميع بما حَلَّ بِهِ استيقظوا من غفلتهم وأبدوا سرورهم من حيث أنهم لم يكونوا قاروناً.

إن تأثير الاعلام لا ينحصر في ذلك الزمان فحسب، بل في كل عصر وهذا أمرٌ لا يُنكر، وان كثيراً من جبابرة الماضي والحاضر يستعينون باستعراضات كاستعراض قارون لأجل تخدير أفكار الناس، وتسخيفها، وسحر أعينهم، وقد جَنَوا ثمار مثل هذه الاستعراضات ولا يزالون، وإنَّ العلماء والمفكرين الراسخين هم فقط القادرون على رفع هذه الحجب عن أفكارهم

---

١ – راجع تفسير الرازي والقرطبي وروح المعاني ذيل الآيات في سورة القصص.

وأفكار غيرهم، وعلى مشاهدة وجوه الجبابرة على حقيقتها.

* * *

وقد بينت الآية الثالثة جانباً من جوانب مقارعة موسى ضد السحرة، الذين دعاهم فرعون من جميع أرجاء مصر واغراهم بالكثير من الوعود، والذين يقدر عددم بعشرات الآلاف من السحرة طبقاً لبعض الروايات، وبخمسة عشر ساحراً طبقاً لبعض آخر (يحتمل ان يكون هذا العدد متعلا بنفس السحرة وأعوانهم وعمالهم، كما ينبغي الالتفات الى ان السحرة كان دراجاً في ذلك العصر بكثرة).

وقد اجتمع لأجل ذلك جمعٌ غفير من الناس عند الضحى في وم كان عندهم عيداً (كما عبّر عنهُ القرآن «يوم الزينة» و«ضحى» في الآية (٥٩) من سورة طه. وقد كشفت القرائن عن ان فرعون كان واثقاً من انتصار السحرة على موسى(عليه السلام)، وذلك لانه كان قد سخر جميع وسائل الاعلام لخدمة هذه القضية.

تقول الآية: (فَلَمّا اَلْقَوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النّــاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجاؤا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ).

وينبغ هنا معرفة مفردتي «الاسترهاب» و«السحر» جيداً لفهم الآية.

جاء « السحر » ــ لغــة ــ بمعنيين، الاول هــو الخــدعة، والثــاني هــو الشيء الذي غمضت عوامله وكانت غير مرئية، وقــد أرجع البعض كــلا المعنيين. الى معنى واحد وقالوا: إن حــقيقة السحــر هي قلب الشيء من حقيقته الى شكل آخر(١).

كما قلنا في المجلد الاول من التفسير الأمثل عند تــفسير الآية (١٠٢) من

---

١ – راجع قاموس اللغة، ومفردات الراغب، والتحقيق في كلمات القرآن الكريم، وتاج العروس.

سورة البقرة: ان السحر غالباً ما يعتمد على الخواص الكيمياوية والفيزياوية للمواد التي لم يعرفها الناس إلاّ ان السحرة يعرفونها جيداً وقــد اعتمدوا عليها كلياً، كما انــه جاء في التفاسير حول قصة مقارعة موسى(عليه السلام) للسحرة، اذ يحتمل ان ما جاء به السحرة هو مجموعة من العصي والحبال الجلدية الجوفاء والمليئة بمادة الزئبق الفرّار، وبما ان الحركة والتمدد الشديد من خواصه عند ارتفاع درجة حرارته، فعندما ألقوا هذه العصي والحبال بدأت بالحركة والقفز والتقلص والنبساط بفعل حرارة الشمس أو الحرارة المنبعثة من المكان الذي يحتمل وجود مصدر حرارتي تحته(١).

وقد يستعين السحرة في عــروضهم ــ احياناً ــ بالشعوذة وخفة اليد، فيرى الناسُ أشيــاءً لا واقع لها، وقد شاهد كثير من الناس نماذج من هذه العروض، وقد ينشرون مواد كيميائية خاصة عن طريق العطور وتبخير اعشاب معينة بحيث تؤثر على الحاسة الباصرة وأسماع بل وحتى على اعصاب الحضور لتمثيل صور غير واقعية أمامهم.

كما يحتمل انهم يستعينون بالتنويم المغناطيسي والتلقين بحيث تتمثل صور غير واقعية امام الناس.

بالــطبع هناك قسم آخر من السحــر يحتمل استعانة السحرةُ به وهو تسخير الجن أو بعض الأرواح (وهذه خمسة طريق رئيسية للسحر).

وقد يطلق السحـــر على معنـــى أوسع من المعاني السابقة، فيقال لمن حسن بيانه « له بيان ساحر » كما جاء في الحديث: إن الفتنة سحر، لانها تفرق بين الاحبّة، إلاَّ أن الذي جاء في الآية هو « سحروا أعين الناس » وهـــو التـــلاعب بباصرة الحضور بحيث يجعلهم يرون اموراً لا واقع لها، فيرون حية تسعى وإن لم يكن هناك حية أبداً. والشـــاهد على هذا الحديث هو الآية (٦٦) من سورة طه

---

١ – راجع روح المعاني الجزء ٩ الصفحة ٢٢، والفخر الرازي ١٤ الصفحة ٢٠٣، وروح البيان الجزء ٣ الصفحة ٢١٣، والمنار الجزء ٩ الصفحة ٦٦، وتفاسير اخرى.

حيث جاء فيها: (فَإِذا حِبـــالُهُمْ وَعِصِيُّهُـــمْ يُخَيَّـــلُ اِلَيْـــهِ مِـــنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعَى)(مع انها لا تسعى ولا تتحرك لكن الزئبق ــ احتمالا ــ هو الذي جعلها تبدو هكذا).

وامام « استرهبوا » فمن مادة « رَهْب » وهو الخوف المتزامن مع التحفظ والاضطراب (كما يقول الراغب في مفرداته) وقد فسر كثير من المفسرين الاسترهاب بالارهاب أي ايجاد الخوف والاضطراب، والتعبير هذا يكشف بوضوح عن استعانتهم بوسائل الاعلام والتلقين اضافة الى سحر (وغالباً ما يستعين السحرة بهذين الأمرين، بل القسم الأعظم من موفقيتهم يرجع اليهما والى حسن القيام بهما).

وقد نقل ان مساحة المحل الذي عُدَّ لهذا الامر كان ميلا في ميل(١)، كما نقل أيضاً انهم أعدوا جبلا من الحبال والعصي التي تبدو وكأنّها أفاعي تسعى(٢).

ثم خاطب السحرة النـــاس بأقاويل مثل: أيها الناس ابتعـــدوا عن الســـاحة لكي لا تمسكم الأفاعي بضرر لأنها خطرة ومخيفة! وامثال هذه التعابير التي أُشير اليها في بـــعض التفاسير(٣)، وقد تأثر بهم الناس كثيراً لأنهم سحروا أعينهم وقلوبهم، وبهذا ألقوا بحجبهم على حواس الناس وعلى عقولهم للحيلولة دون إدراك الحقائق والواقعيات.

* * *

لقد كشفت الآيـــة الرابعة عن احدى المؤامرات الاعلامية التي حاكها اليهود ضد الاسلام، والتي كان هدفها تضعيف عقيدة المسلمين بالاسلام، وقصتها: ان فريقاً منهم أســـلموا وآمنوا ظاهراً في النهار وارتدوا عن الاسلام في الليل،

---

١ – روح المعاني الجزء ٩ الصفحة ٢٢.

٢ – المنار، وقد نقل هذا الحديث عن مفسر باسم ابن اسحاق الجزء ٩ الصفحة ٦٦.
٣ – الفخر الرازي الجزء ١٤ الصفحة ٢٠٣.

[٣٧٦]

وعندما سئلوا عن سبب رجوعهم عن الاسلام قالـــوا: إنا لاحظنا صفات محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)من قريب فوجدناها لا تتطابق مع كتبنا الدينية وأحاديث علمائنا فرجعنا عنه.
إن هـــذه الجملة الاعلامية ســـبب في ارتـــداد قـــوم من المسلمـــين عن الاسلام، إذ قالوا: إذا ارتدّ عن الاسلام أهل الكتاب الذين هم أفهم منّا ويعرفون القراءة والكتابة، فلابدَّ وأن الدين باطل ولا أسس قوية له، وبهذا استطاعوا أن يشوشوا على أفكار البسطاء من الناس ويلقوا بحجاب فتنتهم على عقولهم.
إن مفردة « طائفة » في عبارة « وقالت طائفة » من مـــادة « طواف » وتـــعنى فريقاً من الناس بشكل حلقة، وكأنهم يطوفون حول موضوع ما، والمراد منـــها على ما يقول بعض المفسرين: هو الاثنا عشر يهودياً من يهود خيبر أو المدينة أو نجران، حيث تألموا كثيراً عند تـــغير القبلة من بيت المقدس الى الكعبة، فحاكوا هذه المؤامرة(١).
إن التعبير بـــ « وجه النهار » إشارة الى بداية النهار لان الوجه أول شيء يواجهه الانسان، وهو أشرف عضو، بالطبع إن الآية حكت المسألة كاقتراح اقترحه البعض وما تكلمت عن تنفيذ هذا الاقتراح، إلاّ أن القرائن أثبتت أنـــهم نفذوا مؤامرتهم بعد ما حاكوها، وإلا فيُستبعد ان يذكره القرآن باهتمام بالغ، والآيات اللاحقة تحكي عن هذه الأهمية.
لكننا نعلم على أي حال، انّ خطتهم الاعلامية هذه لم تترك أثراً ملحوظاً في قلوب المؤمنين الطاهرين.
* * *

---

١ – تفسير الفخر الرازي الجزء ٨ الصفحة ٨٥، وروح المعاني الجزء ٣ الصفحة ١٧٦، وتفسير القرطبي الجزء ٢ الصفحة ١٣٥٤.

[٣٧٧]

إن الآية الخامسة والخيرة بيّنت كذلك جانباً من جوانب مقارعة موسى(عليه السلام)لفرعون، فعندما اتجهت الانظار الى موسى وكادت القلوب أن تهتدي والأفكار أن تُصحح، قام فرعون

بحملة اعلامية شديدة سعياً منه لحرف الناس عن اتجاههم نحو دين موسى، وقد انعكس في هذه الآية جانب من جوانب الاعلام الفرعوني المضلل.

اعتمد اعلامه في البداية على ذكر شرفه العائلي ونسبه، وقال: «أنا خير من هذا المهين مشيراً الى موسى» (أي أعلى من هذا الذي ينتسب الى طبقة الرعاة من بني اسرائيل).
كما انه «لا يكاد يبين» أي أنا أوضح منه كلاماً.
وفضلا عن ذلك «فلو لا القي عليه اسورة من ذهب» أي لِمَ لم يكن له سوار من ذهب الذي كان يُعد علامة وبيان لشخصية صاحبه.
ثم انّه اذا كان صادقاً لِمَ لم يأتِ بملائكة معه كي تكون شهوداً على صدق كلامه؟
وبهذه الحجج الاربع ادعى بطلان نبوة موسى(عليه السلام).
يقول القرآن في هذا المجال: (اِسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فأطاعُوه).
إن «استخف» من مادة «خفيف» والمراد منه هنا هو ان فرعون سعى لأن يستخف عقول قومه، جاء في تفسير مجمع البيان: ان فرعون استخف عقول قومه فأطاعوه فيما دعاهم اليه لأنه احتج عليهم بما ليس بدليل وهو قوله: أليس لي ملك مصر ... الخ(١) (واستخفاف الطفاة للجماهير الله لا غرابة فيه؛ فهم يعزلون الجماهير أولا عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها ولا يعودون يبحثون عنها؛ ويلقون في روعهم ما يشاؤون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة، ومن ثم يسهل استخفافهم بعد

---

١ – تفسير مجمع البيان المجلد ٩، الصفحة ٥١.

ذلك، ويلين قيادتهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين)(١).
والجدير بالذكر ان القرآن يقول في نهاية الآية: انهم أطاعوه واستسلموا لأعلامه، وذلك لأنهم مذنبون وفاسقون، وهو يشير بذلك الى أن المؤمن الهادف والواعي لا يكون عرضة لظاهرة غسل الأدمغة، بل الفسق والذنوب هي التي تهيىء الأرضية لتقبل إعلام باطل كهذا.
وبتعبير آخر: فان «النفس الامارة» من الداخل، و«الوساوس الشيطانية» من الخارج يتعاضدان فيكتمان المعرفة عن الانسان.
* * *

ايضاحات:

الجوانب المتعددة للأعلام المضلل:

إن هذه القضية في عصرنا الحاضر أوضح من أن تبحث أو تُناقش، كما انه لم تخفَ على التاس في العهود الغابرة.

إن الجـــبابرة الذين أرادوا فرض حكومتهم على الناس، توسلوا بوسائل إعلامية مختلفة لغسل أدمغة الناس، بدء بالمكاتيب القديمة وانتهاء بالمحاريب والمنابر، وأخذاً برواة القصص والأساطيـــر في المـــقاهي، وانتـــهاء بالكتب العلمية.

والخلاصة : إنـــهم استعانوا بـــجميع الـــوسائل المظلة للـــوصول الـــى مآربـــهم، من تحريف التاريخ، وأشعار الشعراء، وثناء المداحين، ومراكز التقديس والاحترام عند الناس، واختلاق الاساطير والكرامات والقيم غير الواقعية،

---

١ – في ظلال القرآن المجلد ٧، الصفحة ٣٤٠.

وغيرها من الوسائل، فانهم يستطيعون بوسائل الاعلام هذه ان يصوروا الشيطان ملكاً أو انساناً محترماً، وذلك كله للوصول الى مآربهم.

وقد جاء في بعض التواريخ الاسلامية المعروفة أن طاعة اهل الشام لمعاوية بلغت درجة عجيبة، وننقل هنا عبارة المسعودي في هذا المجال:

«لقد بلغ من أمرهم في إطاعتـــهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة في يوم الأربعاء»(١).

والقصة التالية قصة معـــروفة (وَلَوْ لَـــمْ تكن مرويّةً فـــي كتب التاريخ لكان قبولها صعباً)، حيث ان رجلا من أهل الكوفة قدم دمشق راكباً جملا في وقت كان أهل الشام يرجعون من صفين، فرآه رجل دمشقي فقال له: إن هذه الناقة لي وأنت أخذتها مني في صفين، فتنازعا فاشتكى الشامي عند معاوية (وكأنّها اتخذت صبغة سياسية) وجاء بخمسين شاهد على أن هذه الناقة له، فقضى له معاوية على أساس الشهود.

فصرخ الكوفي قائلا لمعاوية: إن هذا جمل وليس ناقة (انثى الجمل)، وطلب منه أن يلاحظها بنفسه، فأدرك معاوية صدق الكوفي فيما يقوله، لكن رغم ذلك قال له: إن حكم صدر وانقضى، وبعد ما تفرّق الناس أرسل معاوية رجلا الى الكوفي، فأتاه وأعطاه ضعف قيمة جمله، وقال له: «ابلغ علياً اني أُقابله بِمِائةِ ألف ما فيهم من يُفرق بين الناقة والجمل»(٢).

وخلاصة القول: إن في التاريخ شواهد ونماذج كثيرة تكشف عن كيفية إغواء الطغاة والساسة لأُمم عظيمة وغسل أدمغتهم بحيث ظلوا حَيارى في متاهات الدروب، وابتلوا بمصائب كثيرة، وعند استتباب الاوضاع ورجوعها الى حالتها الطبيعية، وعند سقوط الجبار المضل، وارتفاع حجب الاعلام، يستيقظ بعض

---

١ – مروج الذهب الجزء ٢ الصفحة ٧٢ طبعة مصر ١٣٤٦.

٢ – مروج الذهب الجزء ٢ الصفحة ٧٢، الامام علي صوت العدالة الانسانية الجزء ٤ الصفحة ٩٥٦.

الناس واينتبهوا لماضيهم فيتأسفوا ويندموا كثيراً.

وفي العصر الحاضر اكتسب الاعلام قدرة عظيمة بدرجة انَّ في بعض الدول المتقدمة ــ اصطلاحاً ــ تأخذ وسائل الاعلام بأيدِ الشخصيات العلمية والمفكرين الواعين نسبياً الى صناديق الاقتراع ليصوتوا للشخصيات التي تدعو اليها وسائل الاعلام تلك، وقد يتصور انهم احرار على الاطلاق، بينما لا خيار لهم من جراء وسائل الاعلام تلك.

إن اتساع وسائل الاعلام المسموعة والمرئية واستعانتها بفنون علم النفس يزيد في تأثير الاعلام على النفوس بدرجة يَحارُ فيها الخارجون عن دائرة الاعلام والمتكّنون من متابعة الامور من دون رأي مسبق فيها.

إن هذا الأمر لم ينحصر في الامور السياسية فحسب، بل في الامور الاقتصادية كذلك، فان وسائل الاعلام يمكنها بحملة إعلامية أن تسوق المجتمع نحو استهلاك سلعة قد تكون اعتباطية أو مضرة أحياناً، وبهذا يُفرض على المجتمع اقتصادٌ سقيم.

إن الاستعانة بعناوين وقيم كاذبة مثل الاستعانة بعنوان «موديل» أحد أوسع وأعقد الطرق للوصول الى هذه الأهداف غير المشروعة.

كما انه يستعان بالاعلام الثقافي الغامض لفرض المذاهب الفكرية المختلفة على الشعوب، فتارة يُفرض مذهب باطل وعار عن الاسس المنطقية، وكأنه مذهب فلسفي منطقي انساني.

وعلى أي حال، فمما لا شك فيه انه ينبغي رفع هذه الحجب عن المجتمع وتصحيح اتجاه المعرفة فيه، كما ينبغي عدم ترك وسائل الاعلام أن تفكر وتقرر بدلا عن المجتمع، بل يحدد عملها في توعية الناس، وتهيئة الأرضية لهم لاتخاذ القرارات الصحيحة.

ينبغي ان لا يكون هدف وسائل الاعلام الجماعية هو وضع الحجب على عقول

الناس والتعتيم عليهم، بل ينبغي ان يكون الهدف هو رفع حجب التعصب والجهل والغفلة والتقليد العشوائي عن العقول، وهذا هو البرنامج الراقي لوسائل الاعلام في مجتمع رشيد ونموذجي، والمؤسف في عصرنا الحاضر هو قلة مثل هذه المجتمعات.

إن النقص في وسائل الاعلام هو انها بيد الساسة، والأسوء من ذلك انها بيد العمالقة الاقتصاديين الذين يوجهون الناس أين ما شاءوا.

حجاب وساوس الشياطين

في البداية نصغي خاشعين للآيات التالية:

١ ــ (فَلَوْلا اِذْ جـائَهُمْ بِأْسُنـا تَضَرَّعُوا وَلـكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّـنَ لَهُمُ الشَّيْطـانُ مـا كانُوا يَعْمَلُونَ) (الانعام / ٤٣).

٢ ــ (وَجَدْتُهـا وَقَوْمَهـا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّـنَ لَهُمُ الشَّيْطـانُ أَعْمـالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ) (النمل / ٤٢).

٣ ــ (وَعـاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسـاكِنِهِمْ وَزَيَّـنَ لَهُمُ الشَّيْطـانُ اَعْمـالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكـانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) (العنكبوت / ٣٨).

٤ ــ (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمـنِ نُقَيِّضْ لَـهُ شَيْطـاناً فَهُوَ لَـهُ قَرِيـنٌ * وَاِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ)

(الزخرف / ٣٦ ــ ٣٧).

٥ ــ (وَكَذلِكَ جَعَلْنـا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً شَيـاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ اِلى

بَعْض زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً)

(الانعام / ١١٢).

٦ ــ (اِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى اَدْبـارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مـا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُـدى الشَّيْطـانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلى لَهُمْ)

(محمد / ٢٥).

٧ ــ (يـا اَيُّهـا النّـاسُ اِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيـاةُ الدُّنْيـا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ)

(فاطر / ٥).

* * *

شرح المفردات:

إن «الشيطان» خلافاً لما يظنّ البعض ــ ليس اسماً خاصاً بابليس وعلماً له، بل له مفهوم عام، وعلى ما يُصطلح عليه فهو «اسم جنس» يشمل كل موجود متمرد وباغ ومخرّب، سواء كان من الجن أو الانس او شيئاً آخر.

وهنالك قولان في اصل هذه المفردة:

القول الاول هو القائل بأنه من مفردة «شُطُون» أي البُعد، ولهذا قيل للبئر العميق والبعيد قعره عن متناول الأيدي «شَطون»، ويقول «خليل بن أحمد»: إن شَطَن تعني الحبل الطيول، وبما أن الشيطان بعيد عن الحق وعن رحمة الله استعملت هذه المفردة فيه.

والقول الثاني هو القائل بأنه من مادة «شَيْط» ويعني الالتهاب والاحتراق غضباً، وبما ان الشيطان خلق من نار واشتعل غضباً عندما أُمر بالسجود الى

آدم(عليه السلام) أطلقت هذه المفردة عليه وعلى الموجودات الاخرى من أمثاله(١).

«الغَرور» من مادة «غُرور» أي الخدعة والحيلة والغفلة عند اليقظة، وقد اطلقت هذه المفردة على الشيطان لأنه يغرّ الناس بخدَعِه وحِيَله ويخرجهم عن الطريق الصواب، ويغيّر رؤيتهم للحق والباطل.

«الغَرور» كل شيء يغرّ ويخدع، وهو أعمّ من المال والمقام والشهوة والشيطان، واذا فسّر أحياناً بالشيطان فقط فذلك لأنه أخبث الخادعين والماكرين.

أما «التسويل» فمن مادة «سُوْلَ» وفي الأصل يعني الحاجة والامنية التي ترغب النفس فيها، والتسويل يعني تزيين الشيء بشكل حيث تشتاق إليه النفس، كما جاء بمعنى تزيين الاشياء القبيحة.

هذا التفسير ذكره الراغب في مفرداته، إلاَّ أنه يستفاد من صِحاح اللغة وكتاب العين، أن معناها في الأصل هو الاسترخاء المتزامن مع الغرور والغفلة، ولهذا اطلقت هذه المفردة على تزيين الامور غير السائغة واظهار عكس ما هي عليه وبشكل سائغ، بحيث يُخدع الانسان من جراءها ويسترخي.

وعلى أي حال، فان المراد من تسويلات الشيطان في الايات هو إظهار القبح حسناً بكشل يخدع الانسان ويحرفه.

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

كيف يُزيّن الباطل؟ وكيف تُسحر العيون؟
تحدثت الآية الاولى عن فريق من الأقوام السالفة الذين أُرسل إليهم رسلٌ

---

١ – التحقيق في كلمات القرآن الحكيم ــ مفردات الراغب ــ لسان العرب ومجمع البحرين (مادة شيطان).

ليؤمنوا ويسلموا أنفسهم للحق، إلاّ انهم اعرضوا عن ذلك، فأنزل الله عليهم بأسه، فابتلاهم بمختلف المشاكل والمصائب والحوادث الصعبة، والفقر والمرض والقحط وغير ذلك، كي يوقظهم من غفلتهم، ولكي يخضعوا للحق، إلاّ انهم اتخذوا السبيل المنحرف بدل سبيل الرشاد والرجوع الى الحق والتوبة.
يقول القرآن في هذا المجال: لماذا لم يتضرعوا بالرغم من مجيء بأسنا لهم؟ ثم يعدُّ أسباب هذا المر ويقول: الاول هو (قَسَتْ قُلُوبُهُمْ) فما كادت تخضع للحق.
والثاني هو: (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ)، بحيث أصبحوا يرون المعاصي صواباً والقبح جمالا، وقد نفذ الشيطان هنا من طريق عبادة لهوى.
وبتعبير آخر: لم تؤثر فيهم لا مواعظ الانبياء اللفظية، ولا مواعظ الله العملية والتكوينية، وعامل هذا الحجاب هو قسوة القلوب من جهة، ومن جهة اخرى تزيين الشيطان لهم، بحيث سلب منهم روح التضرع والخضوع.
هناك بحث بين المفسرين في المراد من «تزيين الشيطان»، فيقول البعض: انه الوساوس الشيطانية التي تبدو المحاسن فيها قبائحاً والقبائح فيها محاسناً، أو العوامل الخارجية التي تزين للانسان سوءَ أعماله، كما تُجعل المواد السامة في غلاف مُغر وجميل، وكما يُدعى للانحرافات الكبيرة تحت غطاء التمدن والافكار النيرة والحرة.
وتحدثت الآية الثانية عن هدد سليمان عندما قدم من رحلته الى بلاد الملكة سبأ، فبعد حكايته لقصة سبأ وحضارة بلادها العظيمة قال: (وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ).
إن هذه الآية تكشف عن ان الهدهد بالرغم من محدودية عقله وذهنيته

الخاصة به وبعالمه يدرك بالاجمال حجب المعرفة، ويعرف ان الشيطان يجعل ستاراً على فكر الانسان يحول دون تمكنه من إدراك الحقائق ويغلق أبواب المعرفة عنه ويحول دون وصول الانسان الى مراده المنشود.

وقد بحثنا امكانية اطلاع الحيوانات على عالم الانسان، كما بحثنا مدى معرفتها لهذا العالم في تفسير الأمثل الجزء (١٥) ذيل الآية (١٨) من سورة النمل، وفي الجزء (٥) ذيل الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

كما تحدثنا في الجزء (١٩) ذيل الآية نفسها عن كيفية طي الهدهد المسافة الطيولة بين الشام واليمن ووصوله الى بلاد سبأ.

* * *

وقد تحدثت الآية الثالثة عن قوم عاد وثمود وطغيانهم وعصيانهم ثم هلاكهم، كما عرضت على عرب الحجاز مدنهم الخربة التي يمرون بها عند رحلاتهم الى الشام واليمن كعبرة لهم، ثم أشارت الى السبب الأساسي في إهلاكهم وهو تزيين الشيطان لأعمالهم بحيث ما كادوا يبصرون شيئاً ولا يعقلون رغم امتلاكهم للابصار والعقول، وقد قالت الآية: (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ اَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ).

إن عبارة (وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) ــ كما يقول كثير من المفسرين ــ تعني غفلتهم وعدم تدبرهم في الحقائق بالرغم من امتلاكهم للعقول والحواس واقتدارهم على الاستدلال والتمييز بين الحق والباطل(١).

وقد جاء في تفسير الميزان: إنهم كانوا يعرفون طريق الحق بفطرتهم إلاّ ان

---

١ – مجمع البيان الجزء ٧ الصفحة ٢٨٣، روح البيان الجزء ٦ الصفحة ٤٦٨، كما نقل هذا عن بعض المفسرين في تفسير القرطبي.

الشيطان زيَّن لهم أعمالهم فمنعهم عنه(١).

ويقول البعض: إن المراد من العبارة هو معرفتهم للحق بواسطة دعوة الأنبياء وتعاليمهم(٢).

إن الآية بجميع تفاسيرها (سواء قبلنا أحدها أو قبلنا الجميع لعدم المنافاة بينها) شاهد على ما قلناه من أن تزيين الشيطان يجعل حجاباً على عقل الانسان وفكره.

* * *

وقد بينت الآية الرابعة بصورة عامة مصير الذي يعشو عن ذكر الله ويغفل عنه وقالت: (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ ... وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ).

ذَكر المفسرون وائمـــة اللغة معنيين لفعل « يَعْشُ »، فقـــال بعض: إنه ظـــلام خاص يحلُّ في ا لعين يفقد الانسان من جراءه بصره ويكون أعمى أو أعشى (أي لا يرى في الليل) وهو من مادة «عَشَى»، كما يقال «عشواء» للجمل الذي لا يرى أمامه ويخطأ عند المشي، وعبارة «خبط عشواء» إشارة الى هذا المعنى.

وعلى هذا فيكون معنى الآية الشريفة هو: إنَّ الذي لا يـــرى آيات الله في الكون بعينه، ولا يسمعها عن أَلْسِنَةِ أنبياءه، فانه سيقع في فـــخّ الشيـــطان وتسويلاته.

وقال بعض آخر: إنّها من مادة «عَشْو»، وعندما تستعمل مع «الى» فتعني الهداية ببصر ضعيف، وعندما تستعمل مع «عن» فتعني الاعراض(٣).

---

١ – الميزان الجزء ١٦ الصفحة ١٣١.

٢ – تفسير الفخر الرازي الجزء ٢٥ الصفحة ٦٦.

٣ – يقول بعض المفسرين: إن هذه المفردة إن كانت من مادة (عَشَا، يَعْشو)، فتعني التعامي من دون أن تكون علة في بصره، أما اذا كانت من مادة (عَشَى: يَعْشا)، فتعني حصول علة في بصره، روح البيان الجزء ٨ الصفحة ٣٦٨، وينبغي الالتفات هنا الى انها في الآية من باب (عَشَا، يَعْشو).

وعلى هذا فيكون المراد من الآية هو: إن الذين يعرضون عن ذكر الله فَنُقَيِّضُ ونسلط الشيطان عليهم(١).

إن «نُقَيّضُ» من مادة «قَيْض» وتعني قشر البيض ثم استعملت بمعنى الاستيلاء، واستعمال هذه المفردة في الآية أمرٌ مثير، حيث يكشف عن ان الشيطان عندما يَنْقَضُّ على الانسان يحيط به من جميع الجهات، ويقطع اتصاله بالخارج بالكامل كما تفعل قشرة البيض بالبيض، وهذا أسوء أنواع حجب المعرفة التي يُبتَلى بها الانسان، كما ان هناك مثلا عند العرب يقرب معنى الآية للأذهان «استيلاء القيض على البيض».

والأسوء من هذا هو ان احاطة الشيطان بالانسان واستيلاءه عليه ومقارنته له تستمر الى درجة تجعله يفتخر بضلالته ويحسب ان طريقه هو طريق الحق والهداية (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ).

* * *

وقد تحدثت الآية الخامسة عن شياطين الانس والجن الذين نصبوا العداء للانبياء والذين أعدوا أنفسهم لابطال فاعلية تعليم الأنبياء، ويوحي بعضهم الى بعض أقاويل مزخرفةً باطلةً لا أساس

لها من الصحة، كما يعلّم بعضهم الــبعض طرق المكر والخداع، وذلك لاغفال الناس وكتم الحقائق وجعل الحجب عليها، وإبعاد الناس عن تعاليم الأنبياء.
وينبغي ذكر هذه النقطة هنا وهي: إن العدو ذكر بصيغة المفرد، بينما الشيطاين بصيغة الجمع، وهذا قد يكون من حيث ان الشياطين متحدون ومتفقون في سبيل إغفال الناس وخداعهم وكأنهم عدو واحد.

---

١ – راجع لسان العرب ومفردات الراغب وتفسير القرطبي وروح البيان والميزان.

ويقول البعض: إن «عدو» هنا بمعنى أعداء أي بمعنى الجمع(١).
كما صرح بعض آخر: إن «العدو» تطلق على المفرد والمثنى والجمع(٢).
* * *
والآية السادسة هي من آيات سورة محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) التي أُشير فيها الى حجب متعددة من حجب المعرفة، فتارة تعدّ الفساد في الارض وقطع صلة الرحم سبباً للعمى الباطني لهم (الآية ٢٣)، وتارة اخرى تعد ترك التدبر في القرآن بمثابة الإقفال على القلوب.
والآية المذكورة تعدُّ تزيين الشيطان وتسويلاته سبباً لارتداد الضالين، حيث يتبين لهم الحق ويؤمنون به أولا، ثم ينحرفون عنه من جراء تسويلاته وتزيينِهِ لهم الى درجة يفتخرون فيها بضلالتهم الاخيرة.
من هم المشار إليهم في الآية؟
هذا ما بحثه المفســرون وانقسمــوا مــن جراءه الى فــريقين، فبعض يقــول: إنهم اليهود، حيث كانوا مؤمنين بالرسول قبل ظهوره لما توحيه إليهم كتبهم عن ذلك الرسول، ثم سلكوا سبيل العناد والمخالفة له بعد ظهوره، ويُعدُّ هذا ارتداداً نوعاً ما. وبعض يقول: إنها تشير الى المنافقين الذين آمنوا في البداية ثم ارتدوا بعد ذلك، أو أنهم آمنوا ظاهراً وهم كافرون باطناً، لكن مع الالتفات الى كون الآيات التي سبقت هذه الآية والتي تليها ناظرة الى المنافقين، لا يبعد أن تكون هذه الآية تشير إليهم كذلك فالمراد من الآية ــ إذن ــ المنافقون الذين آمنوا في البداية ثم ارتدوا بعد ذلك.

---

١ – روح العاني الجزء ٨ الصفحة ٤.
٢ – المنار الجزء ٨ الصفحة ٥.

إن «أملى لهم» من مادة «املأ» أي الإمهال(١)، والمراد منها هو الآمال البعيدة التي يوحيها الشيطان للانسان، الآمال التي تشغل فكر الانسان وتزين له الباطل وتبعده عن الحق.

* * *

إن سابَع وآخر آية أنذرت الناس ــ بتعبير واف ــ بأن وعد الله حق، ثم ذكر عاملين للضلالة والانحراف عن الحق، الاول الدنيا (فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا)، والثاني الشيطان (وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ) فتارة يؤملكم بكرمه وينسيكم غضبه، وتارة اخرى يغويكم بشكل بحيث تنسون الله وتعاليمه، أو تبدو تعاليمه مقلوبة لديكم.

إن «غرور» ــ كما أشرنا سابقاً ــ هو كل ما خدع الانسان، سواء كان مالا أو جاهاً أو شهوات أو غير ذلك، وبما أن الشيطان أوضح مصداق للخداع، أطلق عليه ذلك كثيراً، وفُسِّر به(٢).

يعتقد كثير من المفسرين ان عبارة (لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ) تلميح الى أنَّ الشيطان غَرَّ الانسان بَعفو الله وكرمه بدرجة يمكّنه من ارتكاب أي معصية أراد، ويبلغ به الأمر أن يعتقد بأن هذا ناشيء عن كمال معرفته لصفات الله! وهذا أمر عجيب.

وحالة كحاله من يتصور أن جسمه قوي وذو مناعة تمكنه من مقاومة جميع السموم المهلكة، فيخدعه تصوره ويتناول السم فيموت.

وهذا هو أحد حجب المعرفة.

---

١ – ينبغي الالتفات هنا الى ان أصل هذه المادة هو «مَلْو» لا «مَلأَ» ــ بالهمزة ــ .

٢ – إن «الغرور» صيغة مبالغة.

* * *

إيضاحات:

١ ــ من هو الشيطان؟

إن «الشيطان» ــ وكما قلنا سابقاً ــ ليس اسماً خاصاً أو علماً لإبليس، بل إن إبليس الذي امتنع عن السجود لآدم هو أحد الشياطين.

إن لإبليس جنوداً كثيرة من جنسه ومن الناس، وتطلق مفردة الشيطان على الجميع، وعلى هذا فقادة الكفر والشرك والظلم والفساد في الارض، والعاملون في الاجهزة الظالمة كلهم من جنود

الشيطان، ولقد جاء في رواية أن هناك شياطينَ من الانس أسوء من شياطين الجن، حيث سأل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أبا ذر يوماً: «هل تعوّذت بالله من شر شياطين الجن والإنس»؟

فقال أبو ذر: وهل من الناس شياطين؟

فاجابه الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم): «نعم هم شرٌ من شياطين الجن»(١).

كما ان المستشفَّ من القرآن هو أن للشيطان جنوداً فرساناً وراجلين كما جاء ذلك في سورة الاسراء الآية (٦٤»: (وَاَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ).

إن «اجلب» من مادة «إجلاب» ويعني التجمع السريع أو الضجيج والصياح لحثّ مجموعة ما على الحركة.

أما المراد من «خيلك ورَجِلك»، فيقول الكثير من المفسرين: إنه الراجل أو الفارس الذي يخطو في معصية الله، أو قاتل في هذا السبيل(٢).

ويقول البعض: إن للشيطان أعواناً وأنصاراً راجلين وفرساناً حقاً.

وحمل البعض العبارة على الكناية، وقال: المراد من الآية هو ان الشيطان أعدَّ

---

١ – تفسير الفخر الرازي الجزء ١٣ الصفحة ١٥٤.

٢ – نقل القرطبي هذا التفسير عن أكثر المفسرين.

العِدَّة ووفّر جميع الوسائل لصراع ومجابهة الناس(١).

كما يحتمل ان يكون المراد من الخيل هو قادة الكفر والظلم والفساد، ومن الرجل، الشخصيات المتوسطة الأضعف من الشخصيات السابقة.

كما يحتمل ان يكون المراد من الخيل هو الشهوات والصفات الذميمة التي تتغلب على روح الانسان وتمتطيها، والمراد من الراجلين هو العوامل الخارجية التي تسعى لانحراف الانسان عن الصراط المستقيم.

* * *

٢ ــ الإجابة على سؤال:

هناك سؤال يرتبط بحثنا وهو: كيف أمكن أن يتركنا الله لوحدنا نواجه جنود الشيطان القوية والقاسية؟ وهل يتفق هذا مع حكمة الله وعدله؟

يمكننا الاجابة على هذا السؤال بالالتفات الى نقطة، وهي: إن الله ــ وكما جاء في القرآن الكريم ــ يجهز المؤمنين بجنود رحمانية، أي الملائكة، ويوظف القوى الغيبية التي في العالم لأن

تتماشى معهم في طريق جهاد النفس والعدو:
(إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلاِكَةُ اَلاّ تَخافِوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوْعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيائُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ) (فصلت / ٣٠ ــ ٣١)

---

١ – ذكر الفخر الرازي هذا التفسير كاحتمال في تفسيره الجزء ٢١ الصفحة ٦، وقد جاء ما يشبه هذا الاحتمال في تفسيره (في ظلال القرآن) الجزء ٥ الصفحة ٣٤٣.

* * *

٣ ــ النقطة المهمة الاخرى:

هي: إن الشيطان لا يدخل قلوبنا فجأة ولا يعر حدود دولة الروح من دون جواز، إن هجومه ليس مباغتاً بل يدخل برخصتنا، نعم انه يدخل من الباب الا من النافذة، ونحنُ نفتح له الباب، كما يقول القرآن في هذا المجال: (اِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ــ اِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) (النحل / ٩٩ ــ ١٠٠).

في الحقيقة ان أعمال الانسان هي التي توفر الأرضية لنفوذ الشيطان، وذلك ما يقوله القرآن: (إنَّ المُبَذِّرِينَ كانُوْا اِخْوانَ الشَّياطِينِ) (الاسراء / ٢٧).

إلاّ انه لا طريق للنجاة من مكائد الشياطين المتنوعة وجنودهم في أشكالها المختلفة من الشهوات ومراكز الفساد والسياسات الاستعمارية والمذاهب المنحرفة والثقافات الفاسدة، إلاّ اللجوء الى الايمان والتقوى والتظلّل بألطاف الله والتوكل على ذاته المقدسة، وكما يقول القرآن: (وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ اِلاَّ قَلِيلا) (النساء / ٨٣).

* * *

وقد انتــهت الى هنا حجب المعــرفة العشرين، فننتقل معــاً الى مؤهلات المعرفة.

[٣٩٣]

[٣٩٤]

مؤهلات المعرفة

[٣٩٥]

[٣٩٦]

٥ ــ مؤهلات المعرفة

تمهيد:

كما ان البذور تنمو في الاراضي الخصبة، وكما أن الأزهار لا تتفتح في الاراضي المالحة بالرغم من استعمال أفضل البذور، ونزول المطر المتوالي عليها، كذلك بذور المعرفة فانها لا

تنمو إلاّ في القلوب الصالحة والمؤهلة، ولا تتفتح أزهارها إلاّ في الارواح الطاهرة.
ولهذا السبب فان الاطلاع على الروحيات والاعمال التي تهييء وتُعِدّ أرضية المعرفة يعد من أهم البحوث التي تتعلق بـــ «المعرفة»، وقد استعمل القرآن في هذا المجال تعابير ذات معان عميقة وإشارات جميلة.
وبالرغم من ان المؤهلات للمعرفة كثيرة، إلاّ أن الاسس المهمة والتي أشار إليها القرآن عبارة عن الامور التالية:

١ ــ التقوى.

٢ ــ الايمان.

٣ ــ الخشية والاحساس بالمسؤولية.

٤ ــ تزكية النفس.

٥ ــ الوعي.

٦ ــ المعرفة.

وسنبحث كلا من هذا الامور في فصل خاص بعد ذكر الآيات التي تتعلق بها، كما سنستعين بالروايات الاسلامية في هذا المجال كمؤكد وموضّح لها ان شاء الله.

* * *

١ ــ علاقة التقوى بالمعرفة

في البداية نصغي خاشعين للآيات التالية:

١ ــ (الَم ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيْهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) (البقرة / ١ ــ ٢)

٢ ــ (يا اَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اِنْ تَتَّقُوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً) (الانفال / ٢٩)

٣ ــ (وَاتَّقُوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله وَالله بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) (البقرة / ٢٨٢)

٤ ــ (يــا اَيُّهــا الَّــذِينَ آمَنُوا اِتَّقــوا الله وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفــلَينِ مِنْ رَحْمَتِــهِ وَيَجْعَلْ لَكُــمْ نُــوراً تَمْشُــونَ بِــهِ وَيَغْفِــرْ لَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ) (الحديد / ٢٨)

* * *

شرح المفردات:

إن «التقوى» من مادة «وِقاية» وتعني ــ كما يقول الراغب في مفرداته ــ حفظ الشيء من الآفات.

ثم يضيف: ان التقوى بمعنى حفظ الروح والنفس ممّا يخشى مضرته، ثم اطلقت على الخوف، كما ان التقوى في الشرع تطلق على التحفظ من المعاصي، وكمالها ترك بعض المباحات المشكوكة(١).

ولباقي أئمة اللغة تعابير تشبه ما جاء في المفردات، فقد فسرها بعض بالصيانة(٢)، وبعض اخر بـ «الامتناع عن القبائح والأهواء»(٣).

وقد نقل عدد من المفسرين حديثاً عن بعض الصحابة أنهم سألوا عن حقيقة التقوى فأجيبوا: «هل مررت بطريق مليء بالاشواك في يوم ما؟ قال السائل: نعم. قال: الم تجمع ثيابك وترفع اذيالك وتسعى للخلاص م الاشواك؟ فحالتك هذه هي التقوى».

نعم، إن الطريق الى الله مليءٌ بأشواك كثيرة كاشواك الشهوات والميول والأهواء والآمال البعيدة والكاذبة، ومن هنا ينبغي على الانسان أن يحافظ على ثبات روحه دون ان تمس الاشواك أقدام روحه فتمزقها، ينبغي أن لا تشغله دون إنهاء هذا الطريق.

وهذ لا يمكن إلا باليقظة والمعرفة والخبرة ومراقبة النفس على الدوام.

وبتعبير أبسط: إن التقوى هي الوقاية من الآفات التي تعترض الروح في طريق التكامل، وتجنّبُ الذنوب والشبهات حتى الحصول على الملكة.

وقد ذكر بعض المفسرين معانيَ عديدة للتقوى، وجاؤوا بشاهد من القرآن لكل

---

١ – مفردات الراغب مادة وقى.

٢ – لسان العرب نفس المادة.

٣ – مجمع البحرين، نفس المادة، كما ينبغي الالتفات الى أن أصل مفردة التقوى هو «وَقى» فانقلبت الواو تاءً، كما ذكر ذلك لخليل بن أحمد في كتابه «العين».

منها، وفي الحقيقة إن كلا منها مصداق من مصادق التقوى، مثل التوبة والطاعة والاخلاص والايمان (العبادة والتوحيد)(١).

ويقول البعض: إن حقيقة التقوى هي أن يجعل الانسان حائلا أو مانعاً أمام آفة ما، فكما يدفع الانسان تأثير ضربات العدو بالدرع، كذلك المتقون فانهم يصونون أنفسهم من عذاب الله

بواسطة درع طاعة الله(٢).
نقسّم التقوى الى ثلاث مراحل: التقوى عن الكفر، والتقوى عن الذنب، والتقوى عما ينسي الانسان ذكر ربّه(٣).
ولكن ــ كما هو واضح ــ فانَّ المعاني هذه كلها ترجع الى المعنى الأساسي الذي ذُكر للتقوى في البداية.
* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

اتقوا كي يسطع نور العلم على قلوبكم!
يقول الله عزّ وجلّ في الآية الاولى: (ذلِكَ الكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدى لِلْمُتَّقِينَ)والتعبير هذا يثبت بوضوح تأثير التقوى على المعرفة كمؤهل لها.
وهذه هي الحقيقة، فمــا لم تحصل في باطن الانسان مرحلة من مراحل التقــوى، لا يمكنه الاستفاضة من ينابيع الكتب السماوية، وأقل التقوى هو أو يسلــم الانسان نفسه الى الحق ويترك العناد، فان الذين يفتقدون هذه المرحلة من التقــوى، سوف لا يرتفعون الى أدنى درجة من درجات المعرفة ولا يتقبلون الهداية أبداً.
طبيعي ان الانسان كلما كانت روح التقوى والتسليم الى الحق وقبول الحقائق

---

١ – وجوه القرآن الصفحة ٥٥، وتفسير الفخر الرازي الجزء ٢ الصفحة ٢٠.
٢ – روح البيان الجزء ١ الصفحة ٣٠ و ٣١.
٣ – روح البيان الجزء ١ الصفحة ٣٠ و ٣١.

والواقعيات قوية عنده كانت استفاضته من ينابيع الهداية أكثر.
إن ينابيع الهداية وعلى رأسها القرآن المجيد كالغيث الذي يحيي الارض ويفتح أزهــا المعرفة فيها، وهذا يحــدثُ في الارض الخصبة فقط لا في كــل أرض.
إن التعبير بــ «هدى» أي بصيغة المصدر، تأكيد لحقيقة أن روح التقــوى اذا استيقظت عند الانسان وأصبحت فعالة، فان القرآن سيصبح الهداية ذاتا (تأمل جيداً).
وفي هذا المجال يقول بعض المفسرين العظام:
«ان الهداية الثــانية لما كانت بالقرآن فالهداية الاولى قبل القرآن وبسبب سلامة الفطرة، فان

الفطرة اذا سلمت لمت تنفك من أن تنتبه شاهدة لفقرها وحاجتها الى امر خارج عنها، وكذا احتياج كل ما سواها مما يقع عليه حس أو وهم أو عقل الى امر خارج تقف دونه سلسلة الحوائج، فهي مؤمنة مذعنة بوجود موجود غائب عن الحس، منه بدأ الجميع وإليه ينتهي ويعود، وانه كما لم يهمل دقيقة من دقائق ما يحتاج اليه الخلق كذلك لا يهمل هداية الناس الى ما ينجيهم من مهلكات الأعمال والاخلاق وهذا هو الاذعان بالتوحيد والنبوة والمعاد وهي اصول الدين»(١).

كما يقول الفخر الرازي:

والبعض الاخر ذكر في حصر الهداية بالمتقين لان الله تعالى ذكر المتقين مدحاً ليبين انهم هم الذين اهتدوا وانتفعوا به كما قال: (انما انت منذر من يخشاها)وقال: (انما تنذر من اتبع الذكر) وقد كان عليه السلام منذراً لكل الناس، فذكر هؤلاء الناس لاجل ان هؤلاء هم الذين انتفعوا باندارة(٢).

وقد استنتج الفخر الرازي في بعض عباراته:

---

١ – الميزان الجزء ١ الصفحة ٤٢.

٢ – تفسير الفخر الرازي الجزء ٢ الصفحة ٢١.

«ولو لم يكن للمتقي فضيلة الاّ ما في قوله تعالى (هدى للمتقين) كفاه لانه تعالى بيّن ان القرآن هدى للناس في قوله تعالى: (شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس) ثم قال: انه هدى للمتقين فهذا يدل على ان المتقين هم كل الناس فمن لا يكون متقياً كانه ليس بانسان(١).

وبالرغم من عدم تنافي التفاسير الماضية، إلاّ أن التفسير الأول يبدو أوضح، ومن هنا يعرف سُقم الرأي القائل (بحمل «المتقين» في الآية على المجاز، والقول بأن المراد منهم سالكو طريق التقوى، وذلك للحيلولة دون الوقوع في اشكال (تحصيل حاصل)، وذلك لان للتقوى ــ وكما قلنا ــ مراحل ودرجات، فمرحلة منه تؤهل لهداية القرآن، والمراحل الرفيعة الاخرى تكون وليدة هداية القرآن.

ويُطرح هنا سؤال وهو: إن الآيات التي جاءت بعد « هدىً للمتقين » عرفت المتقين بالذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وعلى هذا، افلا تكون هداية القرآن تحصيلا للحاصل يا ترى؟!

إن الاجابة على هذا السؤال تتضح بالالتفات الى نقطة في هذا المجال وهي: إن الوصول الى هذه المراحل المذكورة في السؤال ليست نهاية الطريق، بل هناك مراحل كثيرة اخرى

ينبغي طيها لبلوغ المرحلة التكاملية اللائقة بالانسان، وهــذه المرحلة عند المتقين ستهديهم الى مراحل ارفع واسمى بالاستعانة بهداية القرآن.

وتوجد تعبيرات في القرآن تشبه ما جــاء في الآية السابقة، مثلما جاء في الآية (٤٨) من سورة الحاقة (وَاِنَّه لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ).

فعدت الآية الاولى القرآن «هدى» للمتقين وسبباً لهدايتهم، والثانية «تذكرة» لهم، ونعلم أن «التذكر» من مقدمات «الهداية»، ولهذا عندما وصل عدد من

---

١ – تفسير الفخر الرازي الجزء ٢ الصفحة ٢١.

المفسرين الى هذه الآية أرجعوا الحديث فيها الى نفس الحديث في بداية سورة البقرة.

وعلى أية حال، فان هذه الآيات شاهد ناطق على دور التقوى كممهّد للمعرفة والهداية.

* * *

وقد وضحت الآية الثانية علاقة التقوى بالمعرفة توضيحاً أكثر من الآية السابقة وصرحت: (يا اَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اِنْ تَتَّقُوا الله يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً).

إنَّ « الفرقان » ــ كما يقــول بعض أئمــة اللغة ــ: (اسم مصدر)، وادعــى بعض آخر أنه (مصدر) إلاّ أن أغلب المفسرين يصرحون بأن له ــ في موارد كهذا المورد ــ معنى فاعلياً مقروناً بالتأكيد (أشبه ما يكون بمفهوم صيغة المبالغة)، ومعناه

الشيء الذي يفرق بين الحق والباطل، وله مفهوم واسع يشمل القرآن المجيد ومعجزات الانبياء والأدلة العقلية الواضحة وشرح الصدر والتوفيق والنورانية الباطنية وغير ذلك(١).

وبهذا، فالقرآن يقول بان «التقوى» هي الارضية التي تعد للمعرفة والتي يمكن الاستدلال بها تماماً في بعض المراحل، وتنطوي في المراحل الاخرى ضمن الامدادات الالهية المعنوية.

سمى القرآن المجيد يوم معركة بدر «يوم الفرقان»، وذلك من حيث أنه يوم شهد آيات الله البارزة تؤيد جند الاسلام ضد جند الشرك، فبالرغم من عِدَّة وعدد المشركين الذي يقدر بثلاثة أضعاف عدد المسلمين، تحملوا ضربات قاسية من المسلمين لم يتوقعها أحد.

١ – راجع المفردات، وكتاب العين، ولسان العرب، ومجمع البحرين، والميزان، والكشاف في ذيل الآية نفسها.

إضافة الى هذا، فان معركة بدر كانت أول مواجهة مسلحة بين المسلمين والمشركين انفصلت بها صفوف المسلمين عن المشركين، ولذا سميت بـــ «يوم الفرقان».
وينبغي الالتفات الى أن «فرقاناً» جاءت بصيغة نكرة ومطلقة، فدلّت على عظمة ذلك النور الالهي وعلى سعته، بحيث يشمل المسائل الاعتقادية والعملية وكل ابداء رأي تجاه امور الحياة المهمة، وعلى هذا، فثمرة شجرة التقوى هي الولوج في كل خير وبركة والابتعاد عن كل شرٍّ وفساد.
يقول الفخر الرازي في شرحه لهذه الآية: بما أن لفظ الفرقان مطلق فينبغي حمله على كل ما يفرق المؤمنين عن الكافرين، فهذا الفرقان إِما في أحوال الدنيا وإِما في أحوال الآخرة، والذي يتعلق بأحوال الدنيا إِما انه يتعلق بالقلب وهي الاحوال الباطنة او في الاحوال الظاهرة، فبالنسبة للقلب والباطن فالله يهدي قلوب المؤمنين ويلقي فيها المعرفة ويشرح صدورهم ويمحو عنـــها الحقد والحسد والبغض والعداوة، بينما يمتليء قلب المنافق والكافر من هذه الرذائل والصفات السيئة، لأن القلب اذا تنور بنور الايمان زالت ظلمات هـــذه الرذائل عنه، أما الذي يتعلق بالظاهـــر، فالله ينصر المسلمين ويفتح لهم ويمنحهـــم الرفعة(١).

* * *

والآية الثالثة التي هي جزء صغير من أطوال آية في سورة البقرة أي الآية (٢٨٢)، بعـــد ان بيّـــنت عدداً مـــن الأوامر الالهيـــة قالت: (وَاتَّقُـــوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ).

١ – تفسير الفخر الرازي الجزء ١٥ الصفحة ١٥٣ (بتلخيص).

يقول القرطبي في تفسيره:
«انه وعدٌ من الله تعالى بأن من اتقاه علّمـــه، أي يجعـــل في قلبـــه نوراً يفهم بـــه ما يُلقى

اليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقاناً، اي فصلا يفصل به بين الحق والباطل»(١).
إن هذا الحديث لا يعني ترك كسب العلم، والاكتفاء بتهذيب النفس ــ كما يقول بعض الصوفية وأشخاص منحرفون ــ بل المراد هو ان التقوى تهيىء الأرضية لكسب العلم الحقيقي أشبه ما يكون بالأرض الخصبة والمُعدَّة لنثر البذور.
صحيح أن جملة « اتقوا الله » ليست شرطاً وأن جملة « يعلمكم الله » ليست جزاء لها (ولهذا أنكر البعض العلاقة بين التقوى والعلم المستفادة من هذه الآية)، لكن ممّا لا شك فيه هو أن اقتران أحدهما بالآخر لم يكن اعتباطاً، بل هو تلميح الى العلاقة الموجودة بين هذين الاثنين، وإلاّ فيعرض انسجام الآية للسؤال.

* * *

إن رابع وآخر آية بيّنت العلاقة بين التقوى والمعرفة بوضوح، فبينت ثلاثة أجور للذين يتقون الله ويؤمنون برسوله.
الأول يوتيهم الله كفلَيْنِ أو نصيبين من رحمته، نَصيباً لايمانهم ونصيباً لتقواهم، أو نَصيباً لأجل ايمانهم بالانبياء السالفين ونصيباً لأجل ايمانهم بالرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، وبالرغم من ان المخاطبين في الآية مؤمنون إلاّ أن الله يأمرهم أن يؤمنوا بالرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، كما ان شأن نزول الآية يبين انها بصدد فريق من نَصارى الحبشة الذين سمعوا القرآن وآمنوا بنبي الاسلام(صلى الله عليه وآله وسلم)(٢).

---

١ – تفسير القرطبي الجزء ٣ الصفحة ٤٠٦.
٢ – الكِفْل: ما يعيل الانسان ويرفع حاجته، ويعتقد البعض ان هذه المفردة حبشية دخيلة على العربية.

والثاني: هو جعل الله لهم نوراً ــ لأجل ايمانهم وتقواهم ــ يهتدون به في صراطهم: (وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ).
وبالرغم من أن البعض أراد تقييد مفهوم الآية والقول بأن النور الذي ذُكِرَ فيها إشارة الى النور الذي يسعى بين أيدي المؤمنين وبإيمانهم في يوم القيامة (كما تشير الى ذلك الآية ١٢ من سورة الحديد: (يَوْمَ تَرَى الْمُؤمِنِينَ وَالْمُؤمِنات يَسْعَى نُورُهُم بَينَ أَيْدِيهِمْ

وَبِأَيْمـــانِهِم))، لـــكن لا دليل لهم على هذا التقييد، بل ان مفهومها ــ وكما يقول صاحب الميزان ــ واسع يشمل الأنوار الالهية كلها في الدنيا والاخرة، وعلى هذا فتكون الآية شاهداً على العلاقة بين «التقوى» و«المعرفة».

أمّا الأخير فهو: (وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وهذا كله لأجل ايمانهم وتقواهم.

* * *

إيضاحات:

١ ــ علاقة العلم بالتقوى في الروايات الاسلامية:

وفي الروايات الاسلامية ايضاً تم بيان مدى تأثير القوى على مسألة العــلم، هذه الروايات تبين بوضوح ان تطهير القلب والروح بالتقوى يعد الارضية لتلقي المعارف الالهية.

نذكر هنا الأحاديث التالية كنماذج لما جاء في الروايات الاسلامية:

ونقرأ في حديث عن امير المؤمنين(عليه السلام) انه قال:

«من غرس اشجار التقى جنى ثمار الهدى»(١).

٢ ــ وجاء ايضاً في احدى خطب نهج البلاغة انه قال:

---

١ - غرر الحكم.

«اما بعد فاني أُوصيكم بتقوى الله .. فان تقوى الله دواء داء قلوبكم وبصر عمى افئدتكم وشفاء مرض اجسادكم وصلاح فساد صدوركم وطهور دنس انفسكم وجلاء عشأ ابصاركم»(١).

٣ ــ وفي حديث عنه ايضاً أنه(عليه السلام) قال:

«للمتقي هدىً في رشاد وتحرّج عن فساد»(٢).

٤ ــ ونقرأ ايضاً في نهج البلاغة انه(عليه السلام) قال:

«اين العقــول المستصبحة بمصــابيح الهــدى والابصار اللامحة الى منــار التقوى»(٣).

٥ ــ ونختــم حــديثنا بحديث ذي معنــى عميق عن الرســول(صلى الله عليه وآله وسلم) حيث قال: جاء في وصيّة الخضر لموسى(عليه السلام): «يا موسى وطِّــن نفسك على الصبــر تلق الحلــم واشعــر قلبك التقوى تنــل العلم وَرَضّ (روّض) نفســك على الصبر تخلص من الاثم»(٤).

* * *

٢ ــ كيفية الارتباط بين ينابيع العلم والتقوى؟

ما هو تأثير التقوى واجتناب الذنوب وترك التلوث بها على مسألة المعرفة؟ وبتعبير آخر: ما هي العلاقة المنطقية بين العلم والأخلاق؟

في الحقيقة إن لهذين الاثنين علاقة تقارب قوية، وأي علاقة أقرب وأوثق من العلاقة المتبادلة بين هذين الاثنين؟ فالتقوى ينبوع العلم، كما ان العلم ينبوع

---

١ – نهج البلاغة خطبة رقم ١٩٨.

٢ – غرر الحكم.

٣ – نهج البلاغة خطبة رقم ١٤٤.

٤ – منية المريد للشهيد الثاني (ينقل عن بحار الانوار الجزء ١ الصفحة ٢٢٧).

التقوى، وليس هذا بامر طبيعي فحسب بل انه اصل اساسي للسير في طريق المعرفة.

فيمكن الاستدلال على تأثير التقوى على العلم بالطرق التالية:

أ ــ إن السنخية والتنسيق تسببان الجاذبية والارتباط دائماً.

فعندما تتطهر روح الانسان وتزكى بالتقوى تحصل جاذبية قوية بينها وبين المعارف والعلوم الحقيقية «فالسنخية تبعث على الارتباط العجيب».

ب ــ إن منجل التقوى يحصد جميع الأشواك من مزرعة روح الانسان، ويُعدّ القلب وبهيئه لنمو بذور العلم والمعرفة، بل إذا دققنا النظر فان بذور العلوم جميعها قد نثرها الله في هذه المزرعة، والمهم في الأمر هو حصد الأعشاب المزاحمة وإرواء المزرعة.

وقد جاء في حديث للمسيح(عليه السلام) مخاطباً فيه أنصاره قائلا:

«ليس العلم في السماء فينزل اليكم، ولا في تخوم الارض فيصعد عليكم، ولكن العلم مجبول في قلوبكم مركوز في طبائعكم، تخلقوا باخلاق الروحانيين يظهر لكم»(١).

ج ــ نعلم أنه لا وجود للخبل والحسد في مبدأ عالم الوجود، وعلى ما جاء في الآية: (وَاِنْ مِنْ شَيْءٍ اِلاّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ اِلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُوْمٍ)

(الحجر / ٢١)، فان خزائن النعم غير المتناهية عند الله، ما ينقصه زيادة كرمه وكثرته شيئاً، بل ان جوده وكرمه يتجلّى أكثر «وَلا يَزِيدُهُ كَثْرَةُ العَطاءِ اِلاّ جُوداً وَكَرَماً».

وعليه، فان الحرمان سببه عدم أهلية الأشخاص، إن التقوى تجعل الانسان أهلا للفيض الالهي، وأي فيض أرفع شأناً من المعارف والعلوم الالهية؟

إن القلوب كالأوعية كما يقول امير المؤمنين(عليه السلام): (انَّ هذِهِ الْقُلُوب أَوْعِيَةٌ

١ – تفسير الصراط المستقيم الجزء ١ الصفحة ٢٦٧.

فَخَيْرُها أوعاها)(١) والمهم هو أن نوسع هــذه الأوعية، وأن لا تــكون مقلوبة لا تسع ولو لقطرة واحدة، وهذا الأمر ممكن في ظل التقوى.

أما التأثير المتبادل بين العلم والتقوى: فهو ان العلم الحقيقي يمحو جذور الرذائل الأخلاقية وينابيع الاثم والذنب، ويمثل أمامه عواقب الامور، وهذه المعرفة تعين الانسان على تبلور التقوى في قلبه وعلى ابتعاده عن الإثم، ويتضح من هنا ان العلم ينبوع للتقوى، كما ان التقوى ينبوع للعلم، غاية الامر ان مرحلة من التقوى تسبب مرحلة من العلم، وتلك المرحلة من العلم تسبب مرحلة أرفع من التقوى، وعلى هذا المنوال فان كلا منهما يوثر في الآخر تأثير متبادلا، وقد تكون الآية (٢٠١) من سورة الاعراف مشيرةً الى هذه النقطة:

(إِنَّ الَّــذِين اتَّقَوا إِذا مَسَّهُمْ طــائِفٌ مِنَ الشَّيْطــانِ تَذَكَّرُوا فــاذا هُــمْ مُبْصِرُونَ).

أي ان التقوى تكون في البداية، ثم التذكر، ثم البصيرة، والنتيجة هي النجاة من وساوس الشياطين.

* * *

٣ ــ استغلال العلاقة بين «العلم» و«التقوى»:

بالرغم من ان علاقة المعرفة بالتقوىعلاقة لا يمكن انكارها، سواء من وجهة نظر القرآن المجيد، أو من وجهة نظر الدليل والعقل (وقد بينا ذلك بالتفصيل)، إلاَّ أن هذا الحديث لا يعني ترك طرق كسب العلم والمعرفة المتعارفة، والاستغناء بتهذيب النفس عن كسب تنصّب العلوم على قلوبنا العلم، كما ظن ذلك عدد من الصوفية الذين اتخذوا هذه المسألة حجة لمقارعة المعرفة وكسب العلم وظلوا في

١ – نهج البلاغة الحكمة ١٤٧.

جهل دامس.

إن الاسلام أوجب كسب العــلم بدرجة حيث اعتبــر الحضــور في مجــلس العلم كالحضور في روضة من رياض الجنّــة: «مجــلس العلــم روضةٌ من رياض الجنة».

كما عدَّ النظر الى وجه العالم عبادة «النظر الى وجه العالم عبادة»(١)، وكل خطوة يخطوها في سبيل العلم فهي خطوة نحو الجنة(٢).

وقد عدَّ مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء(٣).

وحفظ الحديث وكتابته من الفضائل العظيمة(٤).

ويدعو الاسلام ــ من جهة اخرى ــ الى تهذيب النفس وتزكيتها لأجل تهيئتها لقبول المعارف والعلوم الالهية.

وعلى هذا، فاولئك الذين تركوا طلب العلم واوصوا زملائهم وأتباعهم بتركه، والتوجه الى تصفية الباطن وتزكيتها على خطأ، لأن التزكية هذه غالباً ما تنحرف عن جادة الصواب بسبب عدم اقترانها بالعلم والمعرفة، وكذلك اولئك الذين انهمكوا في كسب العلوم الرسمية وأهملوا تهذيب النفس، فانهم في ضلالة، نعم ينبغي السعي نحو كليهما.

* * *

---

١ – غرر الحكم.

٢ – البحار الجزء ١ الصفحة ١٦٤.

٣ – البحار الجزء ٢ الصفحة ١٤.

٤ – المحجة البيضاء الجزء ١ الصفحة ١٥.

٢ ــ الايمان والمعرفة

تمهيد:

إن روح الايمان هي التسليم للحق والخضوع أمام الواقعيات، وبما أن أكثر واقعية في عالم الوجود هي ذات الله المقدسة، فان ورح الايمان تتمحور حول التوحيد ومعرفة الله.

إن الايمان يفسح المجال أمام عقل الانسان لأن يدرك الواقعيات كــما هي حقاً، سواء كانت مرّة أو حلوة، وسواء كانت ملائمة لمزاجه وطبعه أم لا.

إن معلومات اولئك الذين لم يسلموا للحق هي تصوّرٌ وتمثلٌ لرغباتهم وأهوائهم، لا لنفس

الواقعيات الموجودة في الخارج، انهم يرون الدنيا بالشكل الذي يرغبون فيه، ولا يرونها بشكلها الواقعي.

وبهذا التمهيد تتضح علاقة الايمان بالمعرفة اجمالا، ونصغي الآن خاشعين الى آيات القرآن في هذا المجال:

١ ــ (اَومَنْ كــانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنــاهُ وَجَعَلْنــا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّــاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمــاتِ لَيْسَ بِخــارِجٍ مِنْهــا) (الانعام / ١٢٢)

٢ ــ (أَوْ كَظُلُمــات فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشــاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحــابٌ ظُلُمــاتٌ بَعْضُهــا فَوْقَ بَعْض اِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراهــا وَمَنْ لَمْ يَجْعَل اللهُ لَهُ نُوراً فَمــا لَهُ مِنْ نُور) (النور / ٤٠)

٣ ــ (وَالَّذِينَ آمَنُــوا بِاللهِ ورُسُــلِهِ أُولــئِكَ هُمُ الصِّــدِيقُونَ وَالشّهَــداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ اَجْرُهُمْ وَنُورُهُم) الحديد / ١٩)

٤ ــ (اَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسلامِ فَهُوَ عَلَى نُور مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقــاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولــئِكَ فِي ضَلال مُبِين) (الزمر / ٢٢)

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

تأثير الايمان على الرؤية الصحيحة:

تحدثت الآية الاولى عمّن كانوا موتى ثمّ أحياهم الله وجعل لهم نوراً يهتدون به في الطريق.

والمراد من الموت والحيــاة هنا هو الايمان بعد الكفر، كــما جاء ذلك فــي الآية (٢٤) من ســورة الانفال: (يــا اَيُّهُا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ اِذا دَعــاكُمْ لِمــا يُحْيِيكُمْ) وعلى هذا فالحياة هي حياة الايمان الحقيقي والصادق، الحياة المقترنة بالنور والضياء والمعرفة.

والجــانب المقابل لجانب الأحياء، هــو جانب اولــئك الذين ضــلوا في ظلمات الكفر ولم يخرجــوا منها أبداً (كَمَنْ مَثَــلُهُ فِي الظُّلُمــاتِ لَيْسَ بِخــارِجٍ مِنْهــا).

يعتقــد كثير من المفسرين أن هذا النور هو نــور القرآن، وقــد فسّــره بعضهم بنور الدين، وبعضهم بنور الحكمة(١)، وقــد أضاف البعض على ذلك نور الطاعة(٢)، لكن المسلم ان لهذا

النور مفهوماً واسعاً يشمل جميع أنواع المعرفة، ومن البديهي ان مراد القرآن هو اكمل مصاديقه.

---

١ – تفسير الفخر الرازي الجزء ١٣ الصفحة ١٧٢ وتفسير القرطبي الجزء ٤ الصفحة ٢١٤ والمنار الجزء ٨ الصفحة ٣٠.

٢ – تفسير ابوالفتوح الجزء ٥ الصفحة ٥٠.

إن التعبير بـــ «يمشي به في الناس» يتناسب كثيراً مع الحياة الاجتماعية في الدنيا، كما يكشف عن أن «الايمان» يَعِدُ أرضية «المعرفة» في قلب الانسان ويحول دون ارتكاب الأخطاء في الحياة الدنيا.

* * *

وقد شبهت الآية الثانية غير المؤمنين (أو أعمالهم) بظلمات أعماق بحر لُجّي تتلاطم الامواج على سطحه، وسمائه ملبدة بالغيوم بحيث اذا أخرج شخص يده لم يكد يراها أحد. وقد أكدت في النهاية: ان الذين لم يجعل الله لهم نوراً فما لهم من نور أبداً.

إن عبارات هذه الآية تثبت بوضوح ان الكفر وعدم الايمان ظلمات، وان الايمان والاسلا نور.

إن الأخطاء التي تصدر من غير المؤمنين ومن المنحرفين بدرجة من الكثرة بحيث يحارُ الناظر اليهم كيف انهم لا يكادون يرون حتى موضع اقدامهم؟! وكيف انهم لا يستطيعون تمييز ما ينفعهم عما يضرهم؟

حقــاً انه لا ظلام أشدّ من الظــلام الذي رسمتــه الآيــة، فان طبيعة أعماق البحار هي الظلام، لأن نور الشمس لا ينفذ إلاّ لمــدى أقصاه سبعمائة متر، وبعد ذلك لا شيء سوى الظلام الــدامس، هذا اذا لم يــكن البحر لجياً، وإلاَّ فلا تنفذ أشعة الشمس إلاّ لمدى قريب جداً من سطح البحر، وفضلا عن هذا فان الغيوم تمنع من وصول أشعة الشمس أساساً.

ويقو البعض: إن المراد من الظلمات الثلاثة في الآية هو ظلمات الكفار في الاعتقاد، وظلماتهم في الكلام، وظلماتهم في العمل.

ويعتقد بعض ان المراد منها هو: ظلمات القلب وظلمات الباصرة وظلمات

السمع، وأضاف بعض آخر: ان هذه الظلمات عبارة عن: انه لا يعلم ولا يعلم أنّه لا يعلم، ويظن أنه يعلم(١)، ولكن لا منافاة بين هذه التفاسير، ومفهوم الآية يسع جميع هذه التفاسير.

* * *

والآية الثالثة، بعدما وصفت المؤمنين بـــ «الصديقين» و«الشهداء» أضافت: «لهم أجرهم ونورهم».

إن «الصدّيق» صيغة مبالغة لصادق، وتعني كثير الصدق، ويقول البعض: إنها تعني الشخص الذي لم يصدر منه كذب أبداً، ويعتقد بعض آخر: انها تعني الذي اعتاد على الصدق بحيث يمتنع عليه الكذب عادةً، وبتعبير آخر: حصلت له طبيعة ثانوية على أساس الصدق وعدم الكذب.

ويقول البعض: إنها تعني الشخص الصادق في اعتقاده وكلامه، يكشف سلوكه عن صدقه اعتقاده(٢).

وتـــجتمع جميع هـــذه المعاني في القـــول بانها صيغة مبالغة لصـــادق، لأن المفهوم آنذاك يكون شاملا لجميع المعاني المتقـــدمة، وعلـــى هذا فالمســـلم أن المراد ليس جميـــع المؤمنين بل المؤمنـــون أصحاب الدرجات الرفيعـــة في ايمانهم.

أما «الشهداء» فقد يكون المراد من ذلك هو أن المؤمنين الصديقين له أجر كأجر الشهداء، كما جاء ذلك في حديث للامام الصادق(عليه السلام) عندما جاءه شخص يطلب الدعاء له بالشهادة، فاجابه الامام(عليه السلام): «إن المؤمن شهيد» ثم تلا الآية:

---

١ – الفخر الرازي الجزء ٢٤ الصفحة ٨.

٢ – المفردات ومجمع البحرين (مادة صدق)، تفسير الميزان الجزء ١٩ الصفحة ١٨٦، وتفسير المراغي الجزء ٢٧ الصفحة ١٧٤، وتفسير مجمع البيان الجزء ٩ الصفحة ٢٣٦.

(وَالَّذِيْنَ آمَنُوا ...)(١).

كما يحتمل ان يكون المراد من الشهداء، هو الشهداء على أعمال الناس، لأن المستشفَّ من آيات عديدة هو أن فريقاً من المؤمنين (الانبياء والأئمة) يشهدون على الامم.

ولا يبعد الجمع بين هذين المعنيين(٢).

إن «الاجر» في عبارة «لهم أجرهم ونروهم» تعني جزاء الأعمال، أما «النور» ففسّرَه البعض بأنه النور الذي يسعى بين أيدي المؤمنين الذي يفتح الطريق نحو الجنة يوم القيامة، إلاَّ انه لا دليل على هذا التحديد، وقد جاء هنا مطلقاً، فينبغي القول بعمومية مفهومه وشموله للنور الذي جعله الله للمؤمنين في الدنيا كما يشمل النور الذي يهتدي به المؤمنون الى الجنة يوم

القيامة(٣).

وقد طـرحت الآية الـرابعة والاخيرة استفهـاماً تقريـرياً قائلة: (اَفَمَنْ شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِلإسلامِ فَهُـوَ عَلَـى نُـور مِنْ رَبِّـهِ)؟ وهذا دليل واضح على أن قبول الايمان متـزامن ومقترن مع شرح الصدر، وشرح الصدر أرضية خصبة للنور الالهـي، النـور الذي يضيء العالم أمام أعين المؤمن، ويكشف له حقائقه كما هي.

إن المراد من «شرح الصدر» هو اتساع الروح الى درجة تكون مستعدة لاستيعاب حقائق كثيرة، وما يقابل شرح الصدر هو «ضيق الصدر» اي تضيق الروح بدرجة لا تتمكن من استيعاب شيء من الحقائق، وبتعبير آخر: إن شرح

---

١ – تفسير مجمع البيان الجزء ٩ الصفحة ٢٣٨.

٢ – احتمل البعض ان جملة (وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ) ليست عطفاً على الجملة التي سبقتها، وانها جملة مستقلة مركبة من مبتدأ وخبر، إلاّ أن هذا الاحتمال بعيد جداً.

٣ – الظاهر من تعبير بعض المفسرين أن الضمائر في جميع هذه الجمل ترجع الى المؤمنين، بينما يصرح صاحب الميزان بأن الضمير في «لهم» يرجع الى «الذين آمنوا» والضميرين الاخرين يرجعان الى «الصديقين» و«الشهداء»، أي اولئك الذين لهم أجر الصديقين والشهداء ولهم نورهم، إلاّ ان هذا الاحتمال بعيد.

الصدر هو اتساع وعظمة الروح الذي يُعَدُّ الارتباط بالذات اللامتناهية أحد عوامله، نعم إن الروح التي تتخذ صبغة الله وتتسع تكون أهلا لقبول العلوم والمعارف الالهية.

إنها لا تتسع فحسب، بل تلين وتختصب وتتهيء لنثر بذور المعرفة فيها، ولهذا صرحت الآية في النهاية: (فَوَيْلٌ لِلْقَـاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ الله).

* * *

إيضاحات:

علاقة الايمان بالعلم في الروايات الاسلامية:

١ ــ جاء في حديث عن الامام الصادق(عليه السلام) انه قال:

«ان المؤمن ينظر بنور الله»(١) فطلب احد الصحابة بيان معنى الحديث فقال(عليه السلام): هذا انما هو لاجل ان الله تعالى قد خلق المؤمن من نوره واحاطه برحمته.

٢ ــ ونقرأ في حديث آخر عن الرسول الاكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال: «اتقوا فــراسة المؤمن فانّــهُ ينظر بنور الله ثم تــلا: ان فــي ذلك للمتوسمين»(٢).

٣ ــ وفي رواية اخرى عن الامام موسى بن جعفر(عليه السلام) عن آبائه الكرام عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «ايّاكم وفراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله تعالى»(٣).

٤ ــ ونجد ان هذه الأمثال اتخذت أهميةً كبرى كما هو المشاهد في بعض الروايات حيث ينقل نهج البلاغة عن امير المؤمنين(عليه السلام) انه قال: «اتقوا ظنون

---

١ – بحار الانور الجزء ٦٤ الصفحة ٧٤ الحديث رقم ٢.

٢ – بحار الانوار الجزء ٦٤ الصفحة ٧٤ الحديث رقم ٤.

٣ – بحار الانوار الجزء ٦٤ الصفحة ٧٥ الحديث رقم ٨.

المؤمنين فان الله سبحانه جعل الحق على السنتهم»(١).

٥ ــ وجاء عنه (عليه السلام) في نهج البلاغة ايضاً انه قال: «وبالصالح يستدل على الايمان وبالايمان يعمر العلم»(٢).

٦ ــ ونختم البحث بحديث عن الامام الباقر(عليه السلام) يقول فيه: «ما من مؤمن الا وله فراسة ينظر بنور الله على قدر ايمانه»(٣).

وكما قلنا في بداية البحث، فان الايمان الصادق يجعل الانسان عاشقاً للحق والحقيقة ومذعناً أمام الواقعيات والحقائق، وبهذا تتحرر روح الانسان من جميع القيود وتتهيأ لقبول جميع المعارف.

* * *

٣ ــ علاقة «الصبر والشكر» بــ «المعرفة»

في البداية نصغي خاشعين للآيات التالية:

١ ــ (وَلَقَدْ اَرْسَلْنــا مُوسَى بِآيــاتِنــا اَنْ اَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمــاتِ اِلى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِاَيّــامِ اللهِ انَّ فِي ذلِكَ لآيــات لِكُلِّ صَبّار شَكُور)

(ابراهيم / ٥)

٢ ــ (اَلَمْ تَرَ اَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيــاتِهِ اِنَّ فِي ذلِكَ لآيــات لِكُلِّ

صبّار شَكُور) (لقمان / ٣١)
٣ ــ (فَقــالُوا رَبَّنــا بــاعِدْ بَيْنَ أَسْفــارِنــا وَظَلَمُــوا اَنْفُسَهُــمْ فَجَعَلْنــاهُمْ

---

١ – الكلمات القصار جملة رقم ٣٠٩.
٢ – نهج البلاغة خطبة رقم ١٥٦.
٣ – عيون الاخبار الجزء ٢ الصفحة ٢٠٠ (ينقله عن كتاب الحياة الصفحة ٩٢).

اَحــادِيثَ وَمَــزَّقْنــاهُمْ كُلَّ مُمَــزَّق اِنَّ فِــي ذلِكَ لآيــات لِكُــلِّ صَبّــار
شَكُور)
(سبأ / ١٩)
٤ ــ (وَمِنْ آيــاتِهِ الجَوارِ فِي البَحْرِ كَالأَعْلامِ * اِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَضْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ
اِنَّ فِي ذلِكَ لآيــات لِكُلِّ صَبّار شَكُور)
(الشورى / ٣٢ ــ ٣٣)
* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

السير في الآفاق والأنفس مع الصابرين:
تحدثت الآيــة الاولى عن « بني اسرائيل »، حــيث بُعثَ فيهم مــوسى (عليه السلام)بمعاجز وآيات إلهية واضحة، وكان موظَّفاً بأن يخرجهم من ظــلمات الشرك والكفر والفساد الى نور التوحيد الذي هو ينبوع جميع البركات والخيرات، ولأن يذكرهم بأيــام الله، ثــم قالت الآيــة في النهاية: (انَّ فِي ذلِكَ لآيــات لِكُلِّ صَبّار شَكُور).
ما المراد من أيــام الله؟
هناك بحث بين المفسرين في هذا المجال، فمنهم من فسرها بالنِّعَم والابتلاءات الالهية(١)، ومنهم من فسرها بأيام انتصار الرسل والأمم الصالحة، ومنه مَنْ اعتبرها اشارة الى أيام عذاب الأقوام الطاغية والعاصية والظاهر عدم المنافاة بين هذه التفاسير لانها كلها من «ايام الله».
إنّ الــ « الأيام » معنــاها واضح، واضافتها الى الله « اضافة تشريفية »، والمراد منها هو جميع الايام المهمة من حيث أهميتها البالغة، أو من حيث أن فيــها نعمة

١ – لقد جاء هذا التفسير في عدد من الاحاديث النبوية. تفسير الميزان الجزء ٥ الصفحة ١٥ و ١٦، وتفسير نور الثقلين الجزء ٢ الصفحة ٥٢٦.

إليهة شملت أقواماً صالحين كالانتصارات العظيمة على جند الشرك والظلم، وكالنجاة من الظَّلَمَة والطواغيت وكالموفقية لأداء الجهاد أو فريضة عــظيمة اخرى.
أو من حيث شمول عذاب الله ونقمته لأقوام عصاة وهلاكهم، أو شمول نبذة من العقاب الالهي لهم ليستيقظوا من غفلتهم ويعوا، كل هذه هي «أيام الله» وداخلة في مفهومها الواسع.
أما سبب كون هذه الآيات عبرة للصــابرين والشاكرين فقط دون غيرهم (ينبغي الالتفــات هنا الــى أن « صبور » « وشكور » صيغةٌ مبالغةٌ، الاولى تعني كثير الصبر والثانية كثير الشكر)، فــذلك لأجل ان دراسة دقائق هذه الحوادث وجذورها من جهة، ونتائجها من جهة اخرى يحتاج الى صبر وتأن.
إضافــة الى هذا، فانه لا يستفيد من هذه الحــوادث إلاَّ اولئك الذين يقدّرون نعَم اللهِ ويشكرونه عليها، وعلى هذا، فالصبر والشكر أرضيتان ملائمتان للمعرفة والعلم.
كما يحتمل ان يكون تقارن الصبر مع الشكر لأجل أن هؤلاء مجهزون بالصبر عند المصائب، وبالشكر عند النِعَم، وعلى هذا فلا يركعون أمام المصائب، ولا يغترون عند نزول النِعَم، فلا يضلِون أنفسهم على أي حال، فهم مؤهلون لتقبل المعرفة وأخذ العِبَر والدروس من هذه الحوادث العظيمة.

* * *

في الآية الثانية والــرابعة جاءت هذه العبارة: (إنَّ فِي ذلِكَ لآيات لِكُلِّ صَبّار شَكُور)، وقد ذُكِرَت بعد التعرض لحركة السفن في البحار والمحيطات التي تتم بإيعاز من الله وبالاستعانة بالرياح فتطوي المسافات البعيدة وتصل الى مقاصدها

بسرعة.
بديهي ان هذا الموضوع هو إحدى آيات الله التكوينية، وآية من آيات النظام الالهي وقدرة الله. لكن هل يا ترى يكون استثمار هذه الآيات الالهية الموجودة في عالم الوجود وحتى الكامنة في هبوب الرياح ممكناً للجميع، أو أنه خاص بأُولئك الذين يدرسون ويتابعون نظام الخلق العجيب بدقة وصبر وتأن الى المستوى الذي يتيح لهم العلم البشري فرصةَ الاستثمار، ومن جهة اخرى

فان الدافع نحو «شكر المُنعِمِ» نفسه عامل للسعي والحركة في طريق المعرفة.

يقول «القرطبي» في تفسيره:

«والآية: العلامة، والعلامة لا تبين في صدر كل مؤمن إنما تتبين لمن صبر على البلاء وشكر على الرخاء»(١).

وقد جاء في تفسير «روح البيان»:

«مبـــالغ في الصبـــر على المشاف فـــيتعب نفسه في التفكر في النفس والآفاق»(٢).

والجميـــل هنا هو ان الهواء الذي يحيط بالكرة الأرضية من ألطف الموجودات، وبالرغم من ذلك فهو عندما يتحرك ويتنقل فانه لا يحرك السفن العظيمة في البحار فحسب، بل كذلك الغيوم التي تُعَدُّ ينابيعَ للغيث، فيأخذ بها نحو الصحاري والأراضي الميتة فيحيها، كما أنه بانتقال الهواء الحار الى المناطق الباردة والهواء البارد الى المناطق الحارة تتهيأ الأراضي الميتة للحياة، واضافة الى هذا فان الهواء يلقح النباتات كالزهور والاشجار ويحمل احياناً البذور فتُزرع في الأماكن التي تسقط فيها، أَلَمْ تكن هذه من آيات الله؟ ومن يمكنه استثمار هذه الآيات غير الصابرين والشاكرين؟

---

١ – تفسير القرطبي الجزء ١٤ الصفحة ٧٩.

٢ – روح البيان الجزء ٧ الصفحة ٩٨.

وقد جاء في حديث للرسول الاعظم(صلى الله عليه وآله وسلم): «الايمان نصفان نصفه صبر ونصفه شكر»(١) وهذا الحديث تأكيد لما جاء في الآيات.

* * *

وأخيراً فان الآية الثاثة أشارت الى قوم سبأ، حيث شملهم التوفيق الالهي فاستطاعوا أن يوجدوا سداً عظيماً بين الجبال في «اليمن»: وادخروا فيه الماء الكثير، وتمكنوا من ايجاد بساتين كثيرة، فغُمروا في النِعَم والفـــرح، إلاّ أنّـــهم سلكوا طريق كفران النعمة، فتسلطت الأقوام المرفهة على الأقوام الضعيفة ظلماً وجوراً فَعَـــمَّ مساكنَهُم الخرابُ والدمار، بحيث هلك الحرث والنسل لانفجـــار السد، فتفككوا وتشتتوا بشكل حيث جعلهم الله أحاديث للآخرين (فجعلناهم أحاديث)وأهلكهم جميعاً (ومزقناهم كلّ ممزق)، ثم أضاف القرآن: (إنَّ فِي ذلِكَ لآيـــات لِكُلِّ صَبّار شَكُور).

وذلك لأنهم يستخلصون الدروس والعِبر بدقتهم وتأنيهم.

ومن جهة فان هذه الحقيقة تثبت، وهي: ان بـــين الحياة والممـــات مسافة قصيرة جداً، بحيث

يمكنك البحث عن الممات في قلب الحياة، فان وفرة الماء التي سببت تقدم قوم سبأ وازدهار بلادهم وتطور حضارتهم، سبب هلاكهم يوماً ما!

ومن جهة اخرى فان هذا يكشف عن شدة ضعف هذا الانسان المغرور، وذلك لأنه يقال انّ السدّ (الذي أُطلق عليه سدّ مأرب)، قد ثُقب بواسطة الجرذان الصحراوية ثقباً صغيراً في البداية ثم توسع الثقب الى أن أدى بالسدّ لأن ينهدم

---

١ – تفسير مجمع البيان الجزء ٧ الصفحة ٣٢٣، تفسير الفخر الرازي الجزء ٢٥ الصفحة ١٦٢، وتفسير المراغي الجزء ٢١ الصفحة ٩٧، وتفسير القرطبي الجزء ٥ الصفحة ٣٥٧١، وتفاسير اخرى.

بالكامل، وبهذا نرى أن جرذاناً صحراوية أبادت حضارة عظيمة.

ومن جهة ثالثة، فان المستكبرين من قوم سبأ الذين ما استعدوا لأن يروا المستضعفين بقربهم، وحسبوا أنه ينبغي وجـــود فاصلة او سد عظيم كسد مأرب بين أقلية الأشراف والأكثرية المستضعفة، طلبوا من الله ان يبعد مدنهم عن مدن المستضعفين كي لا يتمكنوا من السفر مع المستكبرى، ويبـــقى امتيـــاز السفر خاصاً بهم (رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا) إلاّ أن الله فرقهم بشكل حيث لا هم بقوا ولا ظنونهم الباطلة.

ومن جهة رابعة، فان حياتهم المرفهة أغفلتهم عن ذكر الله، وما صحوا إلاّ بعد أن انتهى كل شيء.

وعلى هذا، فيمكننا بالتأمل والدقة والاستعانة بالعقل أن نستشف آيات كثيرة من هذه القصة وهذا الحديث(١).

* * *

النتيجة:

ان المستشف من الآيات الاربع الماضية هو: ان كل من كان أدق وأكثر صبراً في دراسته لاسرار الخلق والحياة الاجتماعية، ولكل من كان شاكراً للنعم ومستعيناً بوسائل المعرفة فان له نصيباً أوفر وأكثر من المعرفة، ولهذا كان الصبر والشكر أرضيتين ممهدتين للمعرفة.

* * *

٤ ــ المعرفة تهيء الارضية للمعرفة

---

١ – ينبغي الالفتات الى ان مفردة «أحاديث» التي جاءت في الآية، منتهى الجموع وتكشف عن وجود أحاديث وقصص كثيرة في ماضي قوم سبأ لا قصة واحدة.

[٤٢٢]

تمهيد:

المعروف هو ان الثروة تجلب الثــروة، اي ان مقداراً من رأس مال يكون ارضية لربح رأس مال ابر، ولما ازداد مقداره ازداد مورد الانسان من رأس مال ذلك.

ان هذا الامر يحكم العلوم والمعارف كذلك، فالذين يملكون رأس مال من العلوم تتوفر عندهم الارضية الخصبة لتقبل علوم ومعارف اخرى، ولهذا قلنا: ان المعرفة تهيء الارضية للمعرفة اي لنيل معارف اخرى هي ارفع واوسع.

وقبل الخوض في البحث نستمع خاشعين للآيات التالية:

١ ــ (وَمِنْ آيــاتِهِ خَلْقُ السَّمَواتِ وَالاْرْضِ وَاختِلافِ اَلْسِنَتِــكُمْ وَالْوانِــكُمْ اِنَّ فِي ذلِكَ لايــات لِلْعــالِمِينَ) (الروم / ٢٢)

٢ ــ (فَتِــلْكَ بُيُوتُهُــمْ خــاوِيةً بِمــا ظَلَمُــوا اِنَّ فِــي ذلِكَ لآيَــةً لِقَــوْم يَعْلَمُونَ) (النمل / ٥٢)

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

مالم تكن منّا لن تطلع على اسرارنا:

ان الآية الاولى من جملة الآيات الكثيرة في سورة الروم التي اشارت لآيات الآفاق والانفس، وعدت بعضاً من آيات الله في العالم الاكبر (الكون) وبعضاً من آيات العالم الاصغر «الانسان» فاشارت الآية الى العالم الاكبر من جهة (وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمَواتِ وَالاْرْضِ)، ثم اشارت الى بعض دقائق خلق الانسان من

[٤٢٣]

جهة اخرى (وَاخْتِلافِ اَلْسِنَتِكُمْ وَاَلْوانِكُمْ).

الاختلاف ليس في الالسنة والالوان الظاهرة فحسب، بل في السنة الفكر والوان الذلواق والبواطن، فانها مختلفة الى درجة بحيث لا يمكن العثور على شخصين متشابهين بالكامل، وهذا الاختلاف جار حتى بالنسبة للتوأم.

ان هذا الاختلاف بسبب ــ من جهة ــ التمايز بين الناس، لانه اذا لم يكن تمايز بين الناس اختل النظام الاجتماعي للحياة، كما هو الحال بالنسبة للتوأم فالذي يعاشرهم كثيراً ما يقع في اخطاء تجاههم، فقد يقدم احدهم من السفر ويقوم صديقهم بزيارة الآخر الذي لم يسافر. او يتمرض احدهم فيزور الآخر وهو صاح. أو يعطي الابوان الدواء للسليم لعدم التمييز بينهما.

تصوروا ما الذي يحصل لو كان الناس جميعاً متشابهين من جميع الجهات؟!! ومن جهة اخرى. فان هذا التنوع والاختلاف يسبب انخراط كل مجموعة من الناس في جانب من جوانب الحياة وبهذا الاختلاف في الاذواق والقابليات تسدّ جميع احتياجات البشر الاجتماعية فلا يحصل خللٌ في هذا المجال، الم تكن هذه الدقة العجيبة في هذا النظام من آيات الله؟!

والجدير بالذكر ان المفسرين ذكروا احتمالات عديدة في تفسير (اختلاف الألسنة) فتارة قالوا: إن المراد منه هو الاختلاف في اللغة، حيث نعلم ان اللغات الموجودة حالياً اكثر من الف لغة، وهذا التنوع الذي لا نريد الخوض في تفصيلاته فعلا، جيد لتتعرف الاقوام المختلفة على بعضها البعض.

وتارة قالوا : ان المراد هو اللــهجات وكيفية حديث الاشخــاص التي تختلف من شخص إلى آخر اختلافاً كبيراً، فكلّ منطق واسلوب في البيان يعبّر عن شخصيته.

وتارة قالوا: ان المــراد هو الاصوات او ما يصطلح عليه بــ «الذبذّات» الذي يختلف عند الاشخاص اختلافاً فاحشاً، ولهذا فان العمى يميز الاشخاص من

اصواتهم، كما ان البصير يميزهم من وجوههم.

ومن هنا يتضح ان اقتران اختلاف الألسنة والألوان بخلق السموات والارض في الآية هو لأجل الاشارة الى ان جميع موجودات العالم ــ صغيرها وكبيرها، وابسطها واعقدها ــ بحسب الظاهر ــ تحكمها قوانين وانظمة دقيقة، و.هي آيات لعلم الله وقدرته وينبغي الاشارة الى ان الآية صرحت في النهاية (اِنَّ فِي ذلِكَ لايات لِلْعالِمِينَ) نعم ان العلماء هم الذين يدرسون اسرار الكون ويتفحصونها واحدة تلو الاخرى، وهم الذين تكون معرفتهم السابقة ارضية خصبة لمعارفهم الاكثر والأدقّ.

* * *

وقد تحدثت الآية الثانية عن مجاميع صغيرة مفسدة تعيش في «وادي القرى» بين قوم صالح (على ما يقوله المفسرون)، وكان عددهم تسعة رهط (اي مجموعات صغيرة)، وكانوا يفسدون في الأرض دائماً كما يصفهم القرآن الكريم (وَكَانَ فِي الْمَدِيْنَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الاْرْضِ).
أمهلهم الله كثيراً كفرصة للتوبة والرجوع الى أنفسهم، لكن ما زادهم الإمهال إلاّ غروراً، وكان نهاية أمرهم أن أنزل اللهُ عليهم صاعقة من السماء، وزلزلة من الارض ختمت حياتهم.
يقول القرآن فيهم: (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيةً بِما ظَلَمُوا) أي خالية منهم بسبب ظلمهم وطغيانهم.
ثم يضيف: (إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ).
إن عبارة (بِما ظَلَمُوا) تدل على ان الظلم هو السبب في دمـــار البيوت وخرابها، وقد نُقِل عن ابن عباس ان قال: إني وجدت هذه الحقيقة في كتاب الله

وهي: إن الظلم يهدم البيوت، ثم تلا الآية المذكورة.
وقد جاء في التوراة: يابن آدم لا تظلم فيُهدم بيتك(١).
وينبغي الالتفات هنا الى أن مفردة «خاوية» تعني ــ في الأصل ــ خالية، إلاّ أن كثيراً من المفسرين فسرها بالخربة، وهذا قد يكون لأجل أن البيت اذا خلى وهُجِر خرِبَ وانهدم(٢).

* * *

النتيجة:

من المعلوم ان آيات الله ــ سواء كانت آفاقية او في الانفس او تعلقت بدروس وعبر تاريخ الاقوام الغابرة ــ تخص الجميع، وبما ان الجميع لا يستفيد منها ولا يستمثرها يقول القرآن عنها (إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ).

وتارة يقول: «للمتقين».
وتارة يقول: «لكل صبّار شكور».
وهذه اشارة الى ان هذه الفرق ــ هي التي تنتفع بهذه الآيات وتستفيد منها دون سواها، لِما عندهم من ارضيّه خصبة لهذا الامر.
وهناك آيات كثيرة في القرآن المجيد لا تخلو من الاشراة الى حقيقة ان المعرفة تعتبر ارضية معدة وخصبة لمعارف اكثر، كــما جــاء ذلك في الآيات التالية:

١ – تفسير روح المعاني الجزء ١٩ الصفحة ١٩٤.

٢ – ذكر صاحب تفسير روح البيان معنيين لمادة (خوى) احدهما الخلو والثاني السقوط والانهدام، ومن هنا يعبر عرب الجاهلية عن النجم اذا سقط (خوى النجم) الا ان الظاهر ان المعنى الاولي لهذه المادة هو: الاول فقط، ويستعمل تعبير (خوى النجم) اذا ما غرب نجم او افل بلا مطر (حيث كان يعتقد عرب الجاهلية ان طلوع كثير من النجوم متزامن مع المطر واذا لم يكن هناك مطر استعملوا التعبير السابق لذلك النجم).

[٤٢٦]

(كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآيــاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (الاعراف / ٣٢)
(يُفَصِّلُ الآيــاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (يونس / ٥)
(كِتــابٌ فُصِّلَتْ آيــاتُهُ قُرآناً عَرَبياً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (فصلت / ٣)
(تِلكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهــا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (البقرة / ٢٣)
كما اتضح ــ مما مر ــ الجواب على الســؤال عن حاجة العــالمين لشــرح وتبيين الآيات الالهية.

٥ ــ علاقة الخوف بالمعرفة

تمهيد:

إنّ الانسان ما لم يشعر بالمسؤولية لا يلتفت الى مصادر المعرفة وسوف لا يبالي بآيات الله ومواعظه.
ومــن هنا ينبغي القــول بان الاحســاس بالمسؤولية والخــوف من الله هو احدى ارضيات المعرفة التي تُعِدُّ روح الانسان وتهيئها لتقبل علوم ومعارف مختلفة.
وبالالتفات الى هذا التمهيــد نستمع خاشعين الى الآيات التالية:
١ ــ (وكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرَى وهِيَ ظــالِمَةٌ إِنَّ اَخْذَهُ اَلِيمٌ شَدِيْدٌ ــ إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لِمَنْ خــافَ عَذابَ الآخِرَةِ) (هود / ١٠٢ ــ ١٠٣)

[٤٢٧]

٢ ــ (اَفَلَمْ يَرَوا اِلى مــا بَيْنَ اَيْدِيهِمْ وَمْا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمــاءِ وَالاَرْضِ اِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمْ الاَرْضَ أَوْ تَسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمــاءِ اِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيب) (سبأ / ٩)
٣ ــ (وَتَرَكْنــا فِيْهــا آيَــةً لِلَّذِينَ يَخــافُوْنَ الْعَــذابِ الأَلِيْمَ) (الذاريات / ٣٧)

* * *

شرح الآيات وتفسيرها:

المعرفة والشعور بالمسؤولية: ــ

إن الآية الاولــى بعــدما أشارت الى ماضي بعض من الاقــوام السالفة (مثل قوم لوط وشعيب والفراعنة) ونزول أنواع من العذاب عليهــا، قــالت: (وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ اِذا أَخَذَ الْقُرَى وَهِــيَ ظــالِمَةٌ) ثم قــالت في النهــاية: (اِنَّ اَخْذَهُ اَلِيمٌ شَدِيدٌ)ثــم قــالت: (اِنَّ فِي ذلِكَ لايَةً لِمَنْ خــافَ عَذابَ الآخِــرَةِ) أي فــي قصص الامم الســالفة وعقابهم ونــزول العذاب عليهم آيــة واضحة لمن خــاف عذاب الآخرة.

لقد جاءت مفردة «آية» نكرة، وذلك للاشارة الى عظمة وأهمية هذه الآية الالهية ودور العبرة فيهــا، والتعبير بــ (لِمَــنْ خــافَ عَذابَ الاْخِــرَةِ) اشارة الى الارضية المُعدَّة للمعرفة عند اولئك الذين يخافون من عذاب الاخرة.

أما اولئك الذين لا يخافون عذاب الاخرة فلا يدركون علاقة هذه الذنوب بهذه الانواع من العذاب الرباني، إنّهم يعدون العذاب أمراً قهرى وجبرياً، أو يرجعون أسبابه الى حركة الافلاك والنجوم وأوهام وخرافات اخرى، ولا يدركون

الاسباب الحقيقة له(١).

إضافة الى هذا، فان الانسان لا يقطع بالعذاب الدنيوي ما لم يقطع بالعذاب الاخروي، لان كلاهما وليد شيء واحد وهو معرفة الله ومعرفة عدالته.

إن جملة « وهي ظالمة » تلميــح الى ان الاخذ والدمار كان بسبب ظلم تلك القرى، وبتعبير آخر: فان جميع الانحرافات العقائدية والسلوكيــة داخــلة في مفردة الظلم.

* * *

والآية الثانية بعدما أشارت الى آيات الله في السموات والارض: وبيان قدرته على كلّ شيء أكّدت بأن اللهَ لم يعجز عن عذاب اولئك العصاة الذين سخروا بآيات الله ورموك بالجنون، واعتبروا المعاد محالا، إنْ شئنا خسفنا بهم الارض، أو أسقطنا عيهم من السماء أحجاراً

سماوية (إنْ نَشَأْ نَخْسِفُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ).

إن « كِسَـف » جمع كِسْـف ويعنـي القمـاش المقطّـع قطعـاً قطعـاً، وقد استعملت هذه المفردة هنا اشارة الى بعض الكرات السماوية التي تنفجر تحت ظروف خاصة وتتحول الى قطع متعددة تسبح في السماء، واذا ما دخـلت في مدار الارض، تحولت (بايعاز من الله) إلى أمطار من حجر، او سقطت على وجه الارض بصورة قِطَع حجرية كبيرة، كلٌّ منها يمكنها تدمير منطقة واسعة من سطح الارض، كـما ان العلماء اكتشفـوا نماذَج من هذه الكُتَل الحجرية في منطقة «سيبيريا».

ثم قالت الآية في النهـاية: (إنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْد مُنِيب) أي لـكل عبد

---

١ – لقد اشير الى هذا الأمر في التفاسير التالية: تفسير روح المعاني الجزء ١٢ الصفحة ١٢٣، وتفسير الفخر الرازي الجزء ١٨ الصفحة ٥٨، وتفسير روح البيان الجزء ٤ الصفحة ١٨٥.

راجع الى الله وخائف من عذابه ومتخذ سبيل التوبة.

المسلم هو ان هذه الآيات عامة لجميع البشر، لكن لا ينتفع بها إلاّ من خاف الله وشعر بالمسوؤلية(١).

وبتعبير آخر: فان جملة (لِكُلِّ عَبْد مُنِيب) بمثابة بيان لسبب جملة (إنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً)، أي ان الالتفات الى حقيقة العبودية والتوبة والإنابة سبب للانتفاع بهذه الآيات(٢).

وفي الحقيقة، إذا ما درسنا حقيقة مفهوم العبودية، رأينا لا يخلو من التوبة والإنابة عند اقتراف الذنب.

* * *

أما ثالث وآخر آية في البحث، فقد أشارت مرة اخرى الى المصير الرهيب لقوم لوط ذلك المجتمع الذي بلغ من العـار أقصاه، وسخر من جميع قيم الايمان والانسانية وغمر في وحل الفساد والفحشاء...

إن الآية بعدما أشارت الى تدمير مدنهم وتخريبها قالت: (وَتَرَكْنا فِيهـا آيَةً لِلَّذِينَ يَخـافُونَ الْعَذابَ الأَلِيمَ) يعتقد الكثير أن مدن قوم لوط كانت في الشامات قرب «البحر الميت» أو بين الشام والحجاز، وكان يطلق عليها «المدائن المؤتفكة»، ويقال: إنه عندما زلزلت الارضُ من مدنَهم هدمتها، ثم نزلت عليهم أمطار من الاحجار، وانشقت عندها الارض شقاً نفذ فيه ماء «البحر الميت»، وبدل هذه المدن الى مستنقعات نتنة، ولهذا يدعي البعض العثور على آثار من

الاعمدة وغيرها من هذه المدن في أطراف البحر الميت.
وعلى أيّ حال، فان هذه الآثار الباقية ــ سواء كانت في اليابسة أو تحت

---

١ – تفسير القرطبي الجزء ٨ الصفحة ٥٣٤٦.
٢ – تفسير روح المعاني الجزء ٢٢ الصفحة ١٠٤.

المستنقعات الآسنة ــ درس وعبرة، ولا ينتفع بهذا الدرس إلاّ الذين يخافون عذاب الله، ويشعرون بالمسؤولية (وتواجدت فيهم أرضية المعرفة).
وبتعبير بعض المفسرين:
آية العبرة هذه هي لاولئك الذين من شأنهم أن يخافوه لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم دون من عداهم من ذوي القلوب القاسية فانهم لا يعتدون بها ولا يعدونها آية ودليلا(١).

* * *

النتيجة:

إن الخوف سواء كان بمعنى الخوف من الله أو من عــذابه أو من الذنب والمعصية (لأن جميعها ترجع الى معنى واحد)، يُعِدُّ الأرضية لــروح الانســان لتقبل الحقائق والمعارف، لأن الانسان مالم يشــعر بالمسؤولية لا يتجه نحو مصادر المعرفة ولا يبحث في آيات الآفاق والأنفس والتكوين والتشريع.
وخلاصة الحديث، ان الحركة نحو العلم والمعرفة كأي حركة اخرى تحتاج الى محرك، والمحرك يمكنه أن يكون احد الامور التالية:
١ ــ جاذبية العلم والعشق للمعرفــة التــي أُودعتْ فــي روح الانسان منذ البداية.
٢ ــ الاطلاع على النتــائج المثمــرة والآثــار القيمــة للمعــرفة، ووصول الانسان الى المــراحل الرفيعة تحت ظلها.
٣ ــ الشعــور بالمسؤولية والخــوف من العواقب المؤلمة لفقدان المعــرفة والجزاء الترتب عليها.
إن كلا من هذه الامور يمكنها أن تهيء الأرضية المناسبة لطيّ هذا الطريق المليء بالتعرجات، واذا ما تعاضدت هذه الامور مع بعضها البعض، فان الحركة

١ – روح المعاني الجزء ٢٧ الصفحة ١٣.

نحو المعرفة ستكون أسرع وأعمق وأكثر ثماراً.

* * *

وآخر الحديث: إن أكبـــر فخر للانســـان هو العلم والمعرفة، والجاهلون هم موتى الأحياء.

إن بلوغ مرحلة المعرفة الكاملة، لا يتم إلاّ مع توفر الأسباب ورفع الموانع والحجب وتهيئة الأرضية المناسبة.

وما أجمل ما قاله الشاعر:

وفي الجهل قبل الموت وموت لأهله ***** فأجسامهم قبل القبور قبور

وانّ امرءاً لم يحيي بالعلم ميتة ***** فليس له حتى النشور نشورٌ

* * *

ربّنا علّمنا المعارف الحقيقة، والأرفع من ذلك أي

معرفة ذاتك المقدسة الطاهرة وصفاتك الجليلة.

إلهي! نعلم ان أعظم فخرنا هو علمنا ومعرفتنا،

والاطلاع على أسمائك وصفاتك وعالم خلقك أي أفعالك،

إلاّ أنه لا يتيسر طيّ هذا الطريق الصعب إلاّ بتوفيقك، فوفقنا

وثبت أقدامنا.

يا مولانا! إن شياطين الدرب كثيرون، وأوديته

خطرة، وموانعه عديدة، ولا يمكن رفع هذه الموانع إلاّ

بامداداتك، فزودنا بها وبألطافك الخاصة.

آمين يا رب العالمين

نهاية المجلد الاول من نفحات القرآن

(التفسير الموضوعي)

صباح الجمعة ــ ٨ رجب ١٤٠٨ هــ . ق

الموافق لــ ٧ / ١٢ / ١٣٦٦ هــ . ش